



مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي
Tamer Institute for Community Education

Publisher: Tamer Institute for Community Education

P.O Box: 1973, Ramallah- Palestine

Tel: 00970 2 2986121/2

Fax: 00970 2 2988161

E-mail: tamer@palnet.com

Website: www.tamerinst.org

الناشر: مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي

ص.ب. 1973، رام الله - فلسطين

هاتف: 00970 2 2986121/2

فاكس: 00970 2 2988161

البريد الإلكتروني: tamer@palnet.com

الموقع الإلكتروني: www.tamerinst.org

© جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر باللغة العربية.
لا يجوز إعادة طباعة المجلة أو ترجمة أو نقل أي أجزاء منها بأي شكل من
الأشكال إلا بإذن خطي مسبق من الناشر.

لوحة الغلاف رسمة الطفلة الشهيذة: منة الله عوض الله

تم إنتاج العدد بالشراكة مع البيت الدنماركي



مجلة طيف فضاء للحرية والاختلاف، والأفكار الواردة فيها تعبر عن وجهة نظر وآراء
أصحابها، ولا تعكس بالضرورة وجهة نظر مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي.

ترحب مؤسسة تامر باستقبال تعليقاتكم وملاحظاتكم على محتوى المجلة، كما ترحب بأية مساهمات ومقالات متخصصة في أدب
الأطفال واليافعين للنشر فيها، وذلك على البريد الإلكتروني: resourcecenter@tamerinst.org

تصميم وتنفيذ: شركة أضواء - رام الله

المحتويات

الباب الثالث: مسارات مبتورة عن المكتبات، عن التجربة،
عن الأطفال، وعن العمل معهم في زمن الإبادة44

المكتبات في دائرة الفعل ومسارات البتر..... 45

شراكة للنجاة والإبداع: تجربة

مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي مع «أضف» 47

تنفيذ الأنشطة وتأثيرها على الأطفال 49

الهوية والانتماء بعد النزوح..... 50

أم يوسف: حين تصوير الخيمة مكتبةً،

والكتاب فعل حياة 52

القراءة تحت النار: شهادات من غزة عن

فعل القراءة زمن الإبادة 53

مسار العودة إلى البيت في رسومات الأطفال

في فلسطين 55

شهادات الميسرين 57

«معجم الإبادة»: كيف يعيد أطفال غزة

صياغة الألم والواقع بلغة جديدة؟ 58

مادلين... بحر الحصار وأمل العبور 60

شهادات من ميدان الإبادة 62

عن الكتاب والمكتبة وخطواتي المتسارعة..... 62

كيف أتعاوى إلى حدٍ ما؟ 65

كيف يكتب الصغار في زمن الحرب؟ 68

أشعر بالحرب 70

كتب أطفال صدرت خلال الإبادة72

الأسماء التي غادرتنا، والأفعال التي لا تزال باقية 4

مقدمة العدد 10

الباب الأول: الأدب والضم من أجل الحياة.

تجارب كتّاب وكاتبات وفنانين/ات مع الإبادة 12

جهة الأدب بعد ملحمة غزّة 13

هذا أنا وهذا شيءٌ يقلقني بطلٌ واحد،

وكومة أحداث 16

الكتابة من أجل الحياة 19

الارتقاء 20

الكتابة على صفيح الحرب 22

مفتاح العودة، والجدة، وبعض الصواريخ والبارود..... 23

عن الكتابة في زمن الإبادة 25

عن الكتب، والحب والنجاة 26

الباب الثاني: أدب البقاء عن كتب الأطفال التي تقاوم28

طائرات ورقية في سماء فلسطين: اللعب

والمقاومة في أدب الأطفال الفلسطيني 29

هذا نور 35

كتاب الأطفال «نور» المقاومة والأمل في العودة ... 37

الأسئلة تتبع من الروح- كتاب «نور»..... 38

أدب البقاء ومأزق القارئ «يوميات أصيل

والأطفال الخمسة» كنموذج 39

«لبن يتعلم التنفس» 41

عن أذرع البيت: شجرتنا رمزية الحضور والغياب 43

حائط رثاء طويل

عدد خاص

ويل

عن الأسماء التي غادرتنا،
والأفعال التي لا تزال باقية

في 18 تشرين الأول / أكتوبر، 2023 غادرنا محمد قريقع.



غادرنا الفنان الذي لم يكن ينتظر الحياة، بل يذهب إليها، يحملها على كتفه، ويفتح لها باباً في كل نشاط، كل مبادرة، كل لحظة إبداع.

محمد، الفنان والناشط في فرق الشباب التابعة لمؤسسة تامر، كان من أولئك الذين لا يكتفون بالحلم، بل يصنعونه. لم يكن ضوءه خافتاً يوماً، بل كان حاداً، حياً، يلمع في وجوه الأطفال، وعلى الجدران، وفي الزوايا التي تمرّ بها القصص والرسم والموسيقى والسينما.

من «يراعات» إلى «أصوات من فلسطين»، كان محمد حاضراً بروحه، بخفته، بمبادراته التي تسبق الكلام. كان يرى الفن وسيلة لفهم العالم، لمقاومة الظلم، لقول «نحن هنا» رغم كل ما يُراد لنا أن نصمت.

كان واسع الخيال، عميق الإحساس، لا يكلّ من التفكير في طرق جديدة لإشراك الأطفال والشباب، لفتح مساحة أمل وسط الركام، لإعادة تعريف الحياة في زمن الإبادة.

غيابه ليس مجرد فقدان لجسد، بل ليد كانت تُمدّ دائماً لتبني، لصوت كان يقول «ماذا يمكن أن نفعّل أيضاً؟»، لعقل كان يربط بين الجمال والمعنى، بين الصورة والفعل.

في 14 تشرين الأول أكتوبر، 2023 غادرنا يوسف دوّاس.



غادرنا الشاب الذي كان يمشي في العالم بعينين تلتقطان الجمال حتى في أكثر اللحظات قسوة. يوسف، الكاتب والمصوّر والخيال، لم يكن يمرّ مروراً عابراً في أيّ مكان؛ كان يحمله بكلماته، بعدسته، بحضوره المضيء، ويحوّله إلى مساحة للحب والمعنى.

في «يراعات» و«أصوات من فلسطين»، لم يكن يوسف مجرد مشارك، بل كان روحاً تفتح النوافذ، وتدلّنا على طرق لا نراها عادة. كان يرى اللغة - لا سيما الإنجليزية التي أحبها بشغف - وسيلة للقول والمقاومة، ومساحة ليعيد فيها تشكيل حياته في مواجهة ما يُراد لها أن تُتسى.

ضحكته، تعليقاته، صوره التي التقطها كما لو أنه يهمس للزمن: «انظر كم نحن أحياء». يوسف لم يكن يوماً خائفاً من التعبير، بل كان يكتب ويصوّر ويقول الحقيقة كما يراها، بجرأة الحالم وإصرار من يعرف أن الحكاية لم تنته بعد.

برحيله، لا نفقد فقط شاباً موهوباً، بل نفقد حضوراً كان يعيد تشكيل الحياة من بين الشقوق. يوسف كان سؤالاً دائماً: «ما الذي يمكن أن نصنعه وسط هذا الظلام؟»، وكان إجابته: «ضوء صغير، نملكه ونشاركه».

سلام لروحه التي حلّقت. وقلوبنا مع كلّ من يشهد هذا العالم يتكسر، ويواصل رغم ذلك أن يحبّه، كما فعل يوسف دوّاساً.

في 5 أغسطس / آب 2024، غادرنا ميسرة الشيخ علي.



غادرنا الشاب الذي كان يعشق البحر، ويحلم وهو ينظر إلى المدى، كأن الأفق وعدٌ يمكن الإمساك به بخيط شبك. ميسرة، الطالب الجامعي والصيد، لم يكن فقط شاباً في الحادية والعشرين من عمره، بل روحاً حرة تسبح في المعنى، وتبحث عن حياة تُصاد مثل الأسماك، بالصبر والحب والخيال.

قريباً من البحر، حيث أحب أن يكون، رحل. أو «تاه»، كما يقول الصيادون في غزة، لكن هذه المرة إلى الأبد. منعته الحرب من أن يُلقي شباكه، من أن ينطلق بخياله، من أن يعود محملاً بما يُفرح أهله وأصدقائه، وحرمته - وحرمتنا - من كل ما كان يمكن أن يصير.

كان ميسرة جزءاً حياً من فريق «المخيم السويدي» ضمن مشروع «امتلاك المكان» في مؤسسة تامر. شاباً مبادراً، مليئاً بالحياة، يرى في المكان أكثر من موقع: يراه قصة تستحق أن تُروى، وعلاقة يجب أن تُبنى، وأملاً يمكن أن يُزرع حتى فوق الإسفلت والركام.

برحيله، خسرتنا صديقاً، ورفيقاً، وخيالاً كان واسعاً كالبحر الذي أحبه. خسرتنا وجهاً مبتسماً، وصوتاً كان يشاركنا الأسئلة والأحلام، ويعرف كيف يُنصت.

سلامٌ لروح ميسرة، لشابٍ لم يكتفِ بالنجاة، بل أراد أن يعيش حقاً، فخذلته الحرب كما خذلت كثيرين منا. لكنه باقٍ، في ذاكرة البحر، وفي قلوبنا، وفي كل شبكة تلقى بحثاً عن حياة.

في 4 نوفمبر / تشرين الثاني، 2023 غادرنا إيمان أبو سعيدة.



ورحلت معها ابنتها جودي، وطفلها زياد، وزوجها إياد، دون نظرات وداع، دون مراسم، كما لو أن يداً خفية من الظلام اختطفت عائلة كاملة، وتركت فينا فجوة لا تُملأ.

إيمان لم تكن مجرد موظفة في مؤسسة تامر؛ كانت إنسانة تفيض بمعاني الإنسانية، صاحبة قلب نادر، وروح تصبو دوماً إلى النور، حتى في أحلك الأوقات. كانت ذكية، مجتهدة، مهندسة معمارية ترى الجمال حيث لا يراه أحد، وتعيد تشكيل الحياة في أمكنة تتأكلها القسوة.

داخل المؤسسة، كانت إيمان أكثر من زميلة. كانت مصدرًا للتعلم، قدوة في الاجتهاد، وصوتاً صادقاً يحمل الأمل والوضوح في آن. بحضورها، كانت تمنح المكان معنى، وبعملها، كانت تفتح أبواباً لخيالٍ لا يُهدم.

برحيلها، خسرتنا واحدة من أكثر الأرواح صدقاً وحناناً. لم تخسر تامر موظفة، بل خسرتنا قلباً كبيراً كان معنا دوماً، خسرتنا عائلةً كانت تنبض بالحياة والحب، وتمشي بيننا ببساطة النبلاء.

سلامٌ لإيمان، و سلامٌ لجودي، وزياد، وإياد، سلامٌ لعائلة رحلت بلا وداع، وبقيت فينا حياةً، بصورها، بضحكاتها، وبما تركته من أثر لا يُنسى.

في 2 سبتمبر / أيلول 2024، غادرنا محمد الأخرس.



غادرنا الشاب الذي كان يرى في الثقافة بيتاً، وفي المبادرة طريقاً، وفي الحلم حقاً بسيطاً وأصيلاً كالماء والهواء. محمد، الذي كان في فريق «نخيل» التابع لتامر، لم يكن مجرد متطوع أو مشارك في أنشطة، بل كان قلباً ينبض وسط الفعاليات، يده ممدودة، وابتسامته سابقة لكل كلمة.

شارك في حملة تشجيع القراءة في المجتمع الفلسطيني، وكان من أعمدة المخيم السويدي، والمخيم الصيفي لمشروع «امتلاك المكان». كان دائم الحضور، بالحماسة نفسها، بالسؤال نفسه: كيف نصنع فرقاً؟ وكان له حلم. حلم سرقته حرب الإبادة، قبل أن يُتاح له أن يشكّله، أن يمنحه ملامحه، أن يقدمه للعالم.

برحيله، فقدنا رفيقاً من رفاق الدرب، وجهاً شاباً كان يرى في الكتاب رفيقاً، وفي اللقاء مساحة لولادة المعنى. فقدناه حين كنا بحاجة إلى أمثاله، الذين يؤمنون أن المستقبل يُبنى، لا يُنتظر.

سلامٌ لروح محمد، لشابٍ لم يطلب الكثير، فقط أن يعيش، فخذلته الحرب كما خذلت كثيرين منّا.

لكنه باقٍ، في ذاكرة المخيم، في ضحكة الأطفال الذين عرفوه، وفي كل فكرة طيبة بدأت معه، وستكمل الطريق باسمه.

في 27 أغسطس / آب 2024، غادرنا محمد سعيد الحليمي.



غادرنا الشاب الذي كان يؤمن بالكلمة، ويصغي للحكاية كما لو أنها المفتاح لفهم العالم. محمد، الشاب العشريني، لم يكن مجرد متطوع في فريق «أصوات من فلسطين»، بل روحاً مشعّة بالحلم والمبادرة، يرى في القراءة فعل مقاومة، وفي الثقافة طريقاً للخلاص.

كان محمد جزءاً حياً من المشهد الثقافي في مؤسسة تامر، لا يغيب عن نشاط، ولا يتردد في المشاركة بأي مبادرة تُشعل خيال الأطفال أو تُثبت في الأرض اليابسة بذرة أمل. كان يحمل الكتب كما يحمل المرء كنزاً، يوزّعها كما لو أنه يوزّع الضوء. وفي كل تجمع ثقافي، كان صوته حاضراً، وعينه تلمعان بالأسئلة.

بفقدانه، خسرنا صديقاً يفيض حيوية، ووجهاً شاباً كان يعرف كيف يُصغي، وكيف يُشارك، وكيف يُحبّ.

سلامٌ لروح محمد، لشابٍ لم يكن ينتظر مستقبلاً يُمنح، بل يحاول أن يصنعه مع رفاقه، فخذلته الحرب كما خذلت كثيرين منّا.

لكنه باقٍ، في ذاكرة الكتب، وفي ضحكات الأطفال الذين قرأ معهم، وفي كل كلمة تُقال بحبّ وإيمان.

في 18 مارس / آذار 2025، غادرنا الفنان ضرغام قريقع.



غادرنا الفنان الذي قاوم بالفرشاة، وحمل الأمل في لوحاته كما لو أنه يحمل العالم على سطح من ألوان. ضرغام لم يكن مجرد رسّام، بل صاحب روح تقول، حتى في الركّام: «الفن هو روعي التي لن تموت». كتب هذه الكلمات في 28 شباط، بعد أن دمر الاحتلال مرسومه ومنزله بالكامل، لكنها لم تكن شكوى، بل إعلان حياة.

ضرغام، عضو فريق «بنفسج» في مؤسسة تامر، لم يكن غائباً عن أي مساحة تُفسح للفن، أو تُفتح للحب، أو تدعو للخيال. شاركنا بأنشطته، بأفكاره، بتفانيه، وبمحبته التي لا تُخفى. كان يصدق أن الفن ليس ترفاً، بل ضرورة، وطريقة لنقول: «نحن هنا، رغم كل شيء».

كان ضرغام يرسم وكأنه يعيد بناء ما تهدم، يحاور الجدران بالألوان، ويزرع في عيون الأطفال صورة لما يمكن أن يكون. برحيله، خسرتنا صوتاً بصرياً نادراً، خسرتنا حضوراً صادقاً لا يعوّض.

سلامٌ لضرغام، للفنان الذي رأى في الرسم مقاومة، وفي الجمال خلاصاً، وفي الأمل طريقاً لا يُغلق. هو لم يمت، ف«لا يُقتل الأمل إلا بموت الروح»... وروح ضرغام باقية، بيننا، وبين كل من يرسم كي لا يُنسى.

في 18 يوليو / تموز 2024، غادرنا بلال عقل.



غادرنا الشاب الذي كانت كلماته تضجّ بالحياة، كأنها تُمسك بالموت من عنقه وتقول له: لن تمرّ بسهولة. بلال، الذي كان في فريق «يراعات» في مؤسسة تامر، لم يكن فقط عضواً في مجموعة شبابية، بل روحاً تكتب وتبحث عن ضوء، وتريد للعالم أن يكون أكثر عدلاً وأقل قسوة.

كتب بلال يوماً: «إذا سمعتم خبر استشهادي، لا تأتوا لتودّعوني إلا إذا كنتُ جسداً كاملاً كما عرفتموني، بوجه مبتسم يمكن تقبيله، ويد دافئة يمكن عناقها...» لكن الحرب، كما تفعل دائماً، تجاهلت الرجاء. جعلت من الوداع فعلاً فادح الألم، ومن الغياب جرحاً لا يشبه الغيابات العادية.

كان بلال يكتب، يحاور، يسأل، يحلم. كان يرى في الأرض حضناً، وفي الكلمة شجرةً تُثمر معنى، وفي وجهه المبتسم وعداً بأن كل شيء يمكن أن يتغير.

برحيله، خسرتنا صديقاً لا يعوّض، ووجهاً شاباً يعرف كيف يُحبّ، وكيف يقول كلمته وبمضي. فقدناه حين كان العالم أحوج ما يكون إلى من يشبهونه: الذين يكتبون ما لا يُقال، ويحملون الوطن في كلماتهم لا على نعوشهم.

سلامٌ لروح بلال، لشاب لم يكن يخشى الموت، بل كان يريد فقط أن يكون حاضراً كما هو، كاملاً، حقيقياً، دافئاً.

وها هو باقٍ، في الكلمة التي تركها لنا، وفي الذاكرة التي تعرف وجهه كما أراد لها أن تتذكره: باسمًا، صادقاً، وعميقاً كجذور الأرض التي احتضنته.

في 16 أبريل / نيسان 2025، غادرتنا فاطمة حسونة. أو كما كنّا نحب أن نناديها: فاطم.



كتبت فاطم:

«في كلّ مرة أرى دائرة الأطفال هذه، يخطرُ في بالي سؤالٌ واحد: ما الذي سيجعلُ طفلاً يُصَفَّقُ بحرارة؟ هل تفعلُ الأغنياتُ ما لا يفعله الكلام؟ أم الموسيقى؟ أم الهتاف؟

صديقي كرم، أسمعهُ يهتفُ دوماً، يكرّرُ الأطفالُ هتافه كصدى صوت، وأتساءلُ مجدداً هل يسمعُ العالمُ هذه الأصداً أم أنها مع الوقت تصيرُ غُباراً؟

كلّما اتّسعت الدائرة، تمنّيتُ لو تتسعُ سعادةُ طفلٍ مجدداً، وتمنّيتُ أكثر لو كنتُ سبباً في هذه السعادة.

أحبُّ الفتيات، الصغيرات على الخصوص، أحبُّ حنانهنّ على إخوتهن، كالأمّ الثانية، وأشعرُ لما أقول لأنني أملكُ ذاتَ العاطفةِ تجاه إخوتي، أخافُ عليهم من الدنيا، من السوء، من الموت، من الجوع، ومن الحرب، وأريدُ لو أنّ كلَّ سعادةٍ العالم تأتي بين أيديهم، وأرى أنّ أجمل اللحظات هي تلك التي نشاركُ فيها المرح، والأغنيات، والضحك، والتصفيق معاً..»

غادرتنا الكاتبة والمصوّرة، الفنانة التي حلمت بأن يجوب فنّها العالم، حتى إن لم يستطع جسدها أن يفعل ذلك. قالت ذات مرة: «لا أريد سوى أن يلمع اسمي، وأن يكون فني هو ذاته يجوب العالم كله». واليوم، يلمع اسمها في قلوبنا، كما تلمع الصور التي التقطتها، والنصوص التي كتبتها، والبصمات التي تركتها في كل مكان مرّت به.

فاطم، خريجة الوسائط المتعددة من الكلية الجامعية، كانت تؤمن بالتجربة والوقت - التجربة الإنسانية التي تمنح الفن عمقه، والوقت الذي يصقل الحلم، ويجعله قابلاً لأن يُرى ويُحسّ.

في «يراعات»، لم تكن مجرد كاتبة، بل روحاً تبحث عن الجمال وسط الضجيج، كانت مولعة بالموسيقى، تطارد أثر الضوء بالكاميرا، وتكتبه بالكلمات. شاركت في ملحق «يراعات»، وفتحت نوافذ لأصوات جديدة، وأحلام أكبر من الحدود.

مع «Untold Palestine»، صوّرت الحكايات التي لا تُروى، ومع مؤسسة تامر، بسّرت الكتابة كأنها تزرع المعنى في تربةٍ منهكة، وتنتظر الأمل يكبر.

تطوّعت في حملات القراءة، شاركت في المبادرات الثقافية، لم تكن تنتظر المقابل، بل تؤمن أن ما تمنحه للحياة هو ما يبقينا فيها، حتى بعد أن نغيب.

مقدمة العدد

رناد قبج، مدير عام مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي.



فضمن مجاورتنا مع الأطفال والطفلات، كتبوا ورسوموا العلم والوطن، والحنين الدائم للبيت واجراس المدارس، وعن الخوف والفقد، وعن الاحتلال، وعن أكبر مخاوفهم اتجاه المعدات الحربية التي يستخدمها الاحتلال، تلك الطائفة المجرمة التي لا تغادرهم في الليل ولا النهار «طائرة الكواد كابتر».

كذلك، كتبوا عن معاناتهم في طوابير الماء، وجمع الحطب، والتكيات لساعات طويلة دون الحصول على مبتغاهم، وحجم الحزن الذي أصابهم كنتيجة لذلك. حدثونا، أيضاً، عن اشتياقهم لجدااتهم اللواتي تركوهن في الشمال بسبب عدم قدرتهن على المشي لمسافات طويلة. حدثونا عن احتجاجاتهم بتوقفهم عن أكل معلبات البازلاء والفاصوليا بعد حين، ولتفوز أكلة المعكرونة بالمقابل عند الأطفال. حدثونا عن أدوات النقل، وعن «الكاره»، وعودة الحمير. حدثونا عن أحلام صغيرة باقتناء مرآة أو مشط في الخيمة الفقيرة، أو عن طفل فقد «شبهه» أثناء رحلة النزوح العسيرة نتيجة المشي الطويل، إلى أن وجد واحداً بسعر مناسب في سوق رفح للبضائع المستخدمة بعد حين. وبعد أسبوع، ذهب به إلى المسجد ليسرق هناك.

رسوموا خيالاتهم بالأيدي الطويلة التي امتدت من دير البلح إلى مطبخ بيوتهم في مدينة غزة ليحضروا ملاعق أكل إضافية تكفي لجميع أفراد العائلة في خيمة نزوحهم. حدثونا عن أنواع الخيم، والفروق بينها، وعن وجوه الأمهات والآباء التي أصبحت تشبه بعضها البعض من الخوف، والإرهاق، والجوع، والحر، والبرد. حدثونا عن اشتياق رؤية شعر أمهم بدون غطاء رأسها في ظل غياب جدران البيت، وفي ظل قماش الخيمة.

يأتيكم هذا العدد من طيف من تحت وطأة حرب الإبادة التي يتعرض لها الشعب الفلسطيني على يد الاحتلال الاسرائيلي، لتتجاوز الإبادة حدود الوطن ولتطال المنطقة العربية وحركات التضامن العالمية. حيث استهدف الاحتلال الوجود المادي والانساني، فقتل، واعتقل، ودمر البيوت والمدارس والمكتبات والمساجد والكنائس بيوتها، ومدارسها ومكتباتها ومستشفياتها. كذلك، لم تتوقف حدود جريمته عند حدود غزة، بل امتدت إلى الضفة حيث سال دم الأطفال في شوارع الخليل وجنين وطولكرم، واستهدف العديد من التجمعات البدوية فالإبادة من الاحتلال مستمرة اتجاه الوجود الفلسطيني ككل... لكن ومع هذا المشهد التراجيدي والسريالي، يأتي إصرار أطفال فلسطين في ذات الوقت على حلمهم في الحياة وتخييل العودة الى البيت والوطن، لتكتب وتغني مجموعة من الطفلات الغزيات في شهر شباط من العام الماضي 2024 أغنية لمدينتهن التي أجبرهن الاحتلال مع عائلاتهن على التشرد منها خلال ممرات الموت من الشمال إلى الجنوب:

«غزة إلنا وإلنا وإلنا

أنتِ فرحتنا وضحكتنا

تركناك غصباً عنا

راجع للحارة والدار

راجع للحلوة غزتنا

غزة إلنا وإلنا وإلنا»



معهم، ونلملم الجراح العميقة، بحلم العودة للبيت/ المدينة/ الوطن، وللمستقبل.

حجم المأساة، والمعاناة، والحزن، والحنين، والحاجة، شكل مصدرًا لتجارب عميقة في الكتابة والتعبير، وأخرجهم من طور المتلقي لدور الفاعل والشاهد الواعي والمدرك، والذي بدوره يضع الكبار، ويضع العالم كله أمام مسؤولياته، ولو بعد حين، في وقوفه صامتًا أمام انتهاكات الاحتلال لكل المواثيق الدولية في حماية الطفولة، وحقه في الحياة الكريمة. وهكذا، فإن قدرة الأطفال على التعبير في خضم هذه المرحلة المفصلية في التاريخ الانساني، لتعطي أملاً ليس فقط لأطفال غزة، بل للإنسانية جمعاء، هو فعل فريد، ويزخر بأبعاد توثيقية لصمود ملحمة للأطفال والشعب والقضية، وكأنها تحاكي حالة إنسانية تجريدية، صعبة التصديق والإدراك. فالفرادة تأتي من أعمال الخيال في ظل الإبادة، التعمق في الخيال المتفائل، الحلم بتوقف العنف والقتل، في ظل واقع وهواجس المعاناة، والخوف، والحرمان، والتعب اليومي. وفي المحصلة، يشكل التعبير عن التجارب والمشاعر نصف الطريق نحو التعافي الذاتي والمجتمعي، وفي إنتاج هذه التعبيرات، ومشاركتها مع المجتمع والعالم، قد تشكل النصف الثاني من التعافي، بحيث نعمل على إيجاد بيئة آمنة تتيح الحياة، والحرية للروح، في ظل معطيات تقدر وتحترم مشاعر الطفل/ة وتجاربه/ة العميقة.

تجربة العمل مع الأطفال كانت مساحات للتعلم لنا كطاقم للمؤسسة أولاً، فالتجربة مليئة بالمشاعر الشائبة من ألم وفكاهة، وخوف وإرادة، ما بين النجاة والإنسانية في واقع لم يكن كذلك، كما شكلوا مصدرًا ودافعية لمزيد من العمل والانتشار عربيًا وعالميًا. كيف لا، وهم أحاطونا بالابتسامات والأمل دون توقف. نقرأهم، ونستعيد معهم عفوية السؤال وصدق المشاعر ليزكرونا بقيم مجتمعنا ما قبل الإبادة من تضامن، وتعاطف، وتكافل، لنخيط بها تلك التصدعات والثقوب لنسجنا الاجتماعي والوطني الحاضن لصمود هذا الشعب.

لم تكتفِ مؤسسة تامر بتوفير هذه المساحات للأطفال والطفلات، والشباب، والشابات للتعبير فحسب، وإنما قامت وتقوم بنشر وتوثيق هذه الأعمال بأشكال مختلفة من كتب، وفيديوهات، وترجمات، ونشر في منتديات عربية وعالمية. كذلك، أطلقت المؤسسة دعوة لتنظيم ايام دراسية حول أدب الطفل العربي في زمن الإبادة، والحروب، والثورات، ولتشكل كتابات الأطفال مصدرًا رئيسًا للدراسة والبحث والتعلم في عمّان في الربيع الأخير من عام 2025.

وهكذا، نمشي مع الأطفال ونجاورهم، ونعمل مع الجهات المختلفة على توثيق هذه الحقبة الملحمية، في ظل هذا الإنتاج الغزير من حيث الكمية والنوعية، لتصبح جزءًا من مادة التاريخ الشفوي لزمن الإبادة لاحقًا، من خلال حضور وأصوات الأطفال الشهود على الإبادة. وأخيرًا، وأمام إصرار الأطفال والطفلات في هذا الفعل من رسم، وكتابة، وغناء للمعاناة والحلم، نستمد القرار والقوة للاستمرار في هذا الفعل المجتمعي، لنسير سويًا

الباب الأول



الأدب والفن من أجل الحياة.
تجارب كتاب وكاتبات وفنانين/ات مع الإبداع

جهة الأدب بعد ملحمة غزّة

مجد كيال



(1)

الأدب مرتبط بالخرس. تبدأ الكتابة حين نحاول التعبير للآخرين عن شيء ما فنعجز لأن لغتنا قاصرة عنه. الأدب محاولة الإفصاح عن هاجس أضخم، أعقد، أشد إبهاماً، مما تتعارف عليه الكلمات التي في متناول يدنا. اللغة التي تظهر دائماً كوسيلة للتواصل، تعمل أيضاً كحاجز يكبل ما في الفؤاد. البنى اللغوية المتعارف عليها - من ترتيب أحرف الكلمة إلى النوع الأدبي إلى معرض الكتب - تحجّم مشاعرنا لتحتويها، تغربل الصور حتى يستوعبها خيال الجماعة.

تبدأ لحظة الكتابة حين نشعر أن شيئاً في داخلنا يضرب بقوة ليخرج إلى العالم، لكن حاجز اللغة يمنعه من التدفق، ويصد ظهوره كما هو. لحظة الاجتهاد لاختراع طرق التفافية جديدة تتجاوز «المحسوم»، وتقرض وصول الفكرة «كما هي» إلى العالم - رغماً عن اللغة، ولكن بواسطتها.

العجز عن الكتابة - أو ما يسمّيه البعض «writing block» - هو الأدب بحد ذاته. الانكماش، الهروب، الشلل أمام الورقة أو الحاسوب، هي رحلة تكوّن النص الأدبي. فيها نحاول عبثاً الإفصاح عن هواجسنا، كأنها كابوس مزعج يُكتم فيه صوتنا. ومن هذه النقطة، نبدأ بتشكيل تجربتنا الكتابية التي تقاوم مملكة اللغة.

نحاول إزعاج اللغة، مقارعتها، إرباكها، مفاجأتها، إخراجها

عن طورها، التعدي على المعتاد، إساءة فهم المفهوم ضمناً، دفعها نحو الجنون، وكل ذلك بهدف إخضاعها للمعاني الهائلة المحفورة في قلوبنا. ما نفعله باللغة أثناء الكتابة الأدبية (مثل أي انتفاضة ضد أي حكم) هو العبث بنظامها الداخلي التقليدي، عرقلة سيرها الموصوف «بالطبيعي»، وخلقلة اتزانها. نضع كلمات غريبة في جملة واحدة، ونزوّج عبارات متنافرة. نستخدم مصطلحاً من ورشة خراطة الصلب لنحكي عن تجوال الرعاة، ننسب صفات البحارة للكثبان الرملية، نعبر بألفاظ الأطفال البريئة عن البراكين والتشكيل العسكري والباركنسون.

هكذا تصير اللغة لعبة تركيب بما لا يُحصى من القطع. نربطها ببعضها البعض، نقرن العبارات، نحاول خلق علاقات لغوية جديدة تتجاوز المتعارف، صور جديدة تمرّن خيالنا وتوسّع عقلنا. نُغيّر مباني الجمل أيضاً. نقطعها في المنتصف لنُفصح عن الغصّة، وحين نختق قد نطوّرها قصداً لينقطع نفس صديقنا القارئ، مثلنا، ونُقصرها حين نركض، ونشتتها كي نضيع. نفعّل كل شيء لنجد طريقة ننصر فيها على العجز. وهكذا، فإن مقارعة مباني اللغة - من العبث بترتيب أحرف الكلمات، وصولاً إلى تدمير المباني الدرامية أو نسف الحدود بين الأنواع الأدبية - هي طريقة الإنسان لمقاومة الخرس.

أما الخرس فوليد الصدمة. وهذه قد تكون شخصية أو جماعية، على شكل حادث طرق أو اقتحام الجيش لمنزلك ليلاً. قد تكون حرباً أهلية أو تحوّلاً تكنولوجياً هائلاً يقرب الحياة بلمح البصر. كلها لحظات مفصلية تُنتج داخل الإنسان أو المجتمع هواجس تتضخّم وتتعمّد بوتيرة أسرع بكثير من وتيرة تغيير اللسان، وتخلق صراعاً فتاكاً بين الفكرة واللغة. الصدمات الإنسانية، حتى الأصغر منها، هي شرارات توقظ محرّكات الأدب ليندفع بحثاً عن قطيعة مع اللغة القديمة، ويُنتج المباني الجديدة، وينسج عقلاً جديداً.

(2)

لكن أي خرسٍ ينجم عن صدمةٍ بحجم ملحمة غزّة؟

يشعر كل إنسان خارج القطاع، إن كان فيه قلب، هول هذا الخرس. ويعرفه أهل غزّة، طبعاً، بعمق وكثافة استثنائيين تماماً، أعنف بآلاف المرّات مما نعرفه نحن خارج القطاع. لكن الأكيد، ورغم الفوارق الهائلة، أن الواقع الذي شهدناه - منذ صباح السابع من أكتوبر، وحتى صباح العودة إلى الشمال عبر شارع الرشيد - وُلد أفكاراً ومشاعر أسرع

مثلاً، ولنعد المسلمات والأجوبة الجاهزة جانباً: هل لا زالت العلاقة بين القراءة والكتابة ثابتة؟ أم يمكنها أن تتخلخل، وتستبدل بمركزة الكتابة دون التعامل مع قراءة الكتب كشرط مسبق لها؟ أن نسأل، بتواضع، ما الذي يمكن لشابة مراهقة عاشت كل أهوال الإبادة أن تتعلمه من كاتب أربيعيني لم يبرح إقامته الأدبية في لوكسمبورغ منذ عقد؟ وهل يمكن إحداث طفرة ثقافية تقوم على تعميم الكتابة ثم التركيز بالقراءة المحلية والآنية، والتجادل معها من خلال مزيد من الإنتاج الأدبي؟

ومن هنا سؤال آخر: هل يمكن بناء نموذج آخر للعلاقة بين الكاتب والقارئ، ينفي مركزية الكاتب ونجميته، ويهز القارئ الخاضع المستهلك، ويتشبه بالفاعلية الشعبية الغراوية والنسيج المجتمعي، ويسعى لدفع الأفراد نحو أدوار فاعلة ومبادرة؟ هل يمكن خلق قارئ لا يخضع للنص بل يصطدم به بهدف الكتابة عنه؟ أي أن تكون القراءة مشحونة برد الفعل، بالمقاومة لسلطة النص؟ وأن تكون مسؤولة الجهة الناشرة أن تحوّل النص من سلعة للاستهلاك إلى وسيلة إنتاج ثقافي؟ أم أننا، مثلاً ومن وجهة نظر أخرى، نحتاج فعل قراءة معني بالانغماس والإيهام، ويتجه لتزويد القارئ بواقع بديل، وملجأ من الصدمة يهدئ توترات الخرس العظيم؟

أو مثلاً: ما مكان محرر النص اليوم؟ هل علينا أن نشرّع الأبواب لتدفق الكتابة الخام، بأخطاء وتشتت يحفظ لحظة انفجارها، في محاولة لتمييز ما غيرته الحرب من مبانٍ وجمل وأصواتٍ وعبارات في وعينا؟ هل يكون الأدب نافذة مفتوحة تماماً، مباشرة، على اندفاع الكاتب/ة ونفسيته/ها بأخطائه وبلبلته؟ أم نبقى على التحرير باعتباره «مساحة طمأنينة» للكاتب والكاتبة في واقع شديد الانهيار؟ هل نمنع المحرر، ذات التجربة الطويلة والمعرفة القديرة، من فرض قوالبه وأساليبه على النصوص؟ أم نحتاجه حفاظاً على استمرارية وتواصل في واقع التشظي؟

أو مثلاً: ما مكانة التوثيق في الكتابة الأدبية في غزّة اليوم؟ (وهذا سؤال طرحه الكاتب الغزي محمد الزقزوق مشكوراً) فيمكن الانتباه إلى ميل شديد نحو توثيق اليوميات والأماكن في الكتابات خلال الحرب. مع حضور الموت ومحو المكان، يصبح كل تفصيل حياتي بسيط عموداً في بناء الذاكرة. لكن من جهة أخرى، ما مدى الخيال الكامن في هذه التوثيقات وبالذاكرة عموماً؟ وهل نطمح أصلاً للفصل بين التوثيق والخيال، وإبقاء الأول في الحقل

وأعظم وأعقد ألف مرّة مما يمكن التعبير عنه باللغة التي بين يدينا اليوم. لذا يجثم الخرس في صدورنا كالمأموت، ويفرض علينا أسئلة هادرة: إلى أين نتجه في الكتابة؟ كيف نقاوم الضعف الذي يسحبنا ويغرقنا في أدب ما قبل غزّة؟ كيف نرفض الأدب، والفن، والعالم، الذي يتصرّف كأن السابع من أكتوبر لم يحصل، وكأن الإبادة لم تنزل بشعبنا؟ للأدب الفلسطيني اليوم مهمة إنسانية: أن يتشبّث بتجربة غزّة بكامل عظمتها وتناقضاتها، وأن يتوغّل في تعلّمها والإصغاء لمختلف أصواتها، وأن يعيد تشكيل لغته وأساليب كتابته ونشره ورؤيته من جديد، انطلاقاً من هذه التجربة.

على أدبنا أن يبحث في ماهية الإنسان عبر الضياع في متاهة غزّة. أن تغيّر غزّة لغتنا وأساليب كتابتنا ومباني رواياتنا حين نكتب عن أي شيء وكل شيء. أن نعيد اكتشاف مباني تفكيرنا من خلال التفاصيل الهائلة: مفردات النزوح، وفوارق أصوات القذائف، وتعدد تعابير الفاجعة، وألعاب الأطفال المبتكرة في مراكز الإيواء، وتكتيكات الفدائيين، والاشتياق لأثاث البيت، وطرق تنظيم المبادرات الإغاثية، وعلاقة المسيرة بالعصا، وأساليب السخرية، وذنب النجاة، وشح الماء، وفضيلة السر في مواجهة المراقبة، والأغذية المعلبة، وفشل الميناء العائم، ومخلفات الذخائر، وأطباع جيل الحصار وعلاقته بالعالم، وصمت العالم وعبثته...

ليست المسألة في أن نكتب عن غزّة، إنما أن تكون كتابةً عبر غزّة. ليست المسألة أن نكتب عن الإبادة، بل أن تصيغ الإبادة لغتنا للكتابة عن العالم. مهمة الأدب لا أن يحوّل هذه الحرب بتفاصيلها الهائلة إلى «محتوى» قصصي، شخصي-هويّاتي، يُعبأ بذات هياكل الـ «Storytelling» وأنماط الكتابة التقليدية. العكس تماماً.

نحن في عصر «إنتاج المحتوى» لأننا فقدنا قدرتنا على إنتاج «الشكل» و«البنية». حقول الثقافة من حولنا مصانع لإعادة تعبئة القصص الشخصية المرقّعة بذات الهياكل النتنفسية التجارية، مسهّلة التسويق والبيع. لأ، ليست هذه مهمتنا. إنما تحويل التفاصيل الهائلة في تجربة غزّة إلى مواطن بحث نستتبط منها ثيمات، وطرق سرد، وأدوات نشر، وعبارات، وشخصية قارئ، ومفاهيم، وأساليب جديدة. مهمة الأدب أن نكتب عن أي شيء في الحياة - عن متعة زرع الحبق، أو الخيانة الزوجية، أو حصار بيروت، أو غزو الفضائيين - بشكلٍ ومنطقٍ نابع من ملحمة غزّة.

ومواطن البحث هذه يمكن أن تقودنا نحو ألف سؤال أدبي بنيوي:

الجمهور الوحيد القادر على أن يبني ويعمم ثورة أدبية تسمو لتفي ملحمة غزّة حقها. حتى لو اجترح كتاب وكتابات اليوم مذاهب جديدة في الأدب، فإن المسألة ليست فردية. ممارسة وتعميق هذه المذاهب، وتحويلها إلى حالة أدبية سائدة في بنية اللغة والعقل الفلسطينية والعربية والعالمية، مرهونة بالضرورة بتفاعل كتاب وكتابات المستقبل، من يقرأون اليوم قصص الأطفال ويكتبون خواطرهم الأولى. هؤلاء الأولاد والبنات عاشوا الإبادة بأجسادهم وأرواحهم، وشربوا صدمتها، وتنفّسوا خرسها لأعماق وعيهم، بعقول لينة قابلة للتشكل (بعكس من عاشوا الإبادة وفي عقولهم أنماطاً راسخة) هم الذين سيشتبكون بكتابتنا ومشاريعنا وتجاربنا التي نخوضها اليوم.

مرة أخرى. يمكن طبعاً، دون أدنى شك، أن تصدر غداً رواية غزية تخرق المتعارف عليه، ويمكن بالتأكيد أن يغير شاعر لاجئ بناء قصيدته بجنون ساحر بعد تأثره بمشاهد الإبادة. ولكن المسألة ليست في عمل فريد، ولا في كاتب استثنائي وكاتبه فذة، إنما في تشكيل تفاعل أدبي مجتمعي يطور الخيال الجمعي ويدرب العقل على بنى جديدة، وهذا يحتاج وقتاً، وسيُعجن حتماً بتغييرات سياسية وأيديولوجية كثيرة سنشهدها.

الأمل بتجديد أدبي راديكالي يتطلب منا دوراً - نحن غير الصغار وغير اليافعين، من أفراد ومؤسسات. ودورنا مسألة شائكة وحساسة. لأن مهامنا تتطلب إنكاراً حقيقياً للذات، وتحييداً للنفس.

تطلب منا هذه المرحلة أن نصغي، وأن نتمرن على تحييد أنفسنا. أن نتعلم أكثر مما ندرّس، أن نصمت، أن نقزم كل ما نعرفه وما تعلمناه رغم إيماننا وحبنا له. أن نفهم (حتى حين يُطلب منا أن نعطي من تجربتنا وخبرتنا) أننا قاصرون أمام ما حدث في غزّة، وبالتالي أمام الأدب الفلسطيني الجديد الذي يمكنه، ويجب، أن ينفجر الآن. سيطلب منا أن نُعلم، سيُدفع لنا لكي نحرر، سيُقَال لنا انقلوا الخبرات، ستُغسل تدخّلاتنا بكلمات معسولة، ونواصل بكل النوايا الحسنة فعل ما تعلمنا فعله قبل غزّة، ما اعتدنا على فعله قبل السابع من أكتوبر، ما نعتقد (بصدق شديد) أنه الصحيح والنافع - لكن الحقيقة أصعب من هذا.

الرجوع إلى أشكال التعبير القديمة، التقليدية، المعروفة والمألوفة، هو رجوع يغري ويريح ويسهل حياتنا ومهامنا، ومن المرجح وربما الحتمي أن تقع فيه جميعاً. لكنه رجوع يعبر عن إشكال إنساني جدي. الرجوع لأدب ما قبل غزّة

البحثي؟ وما فائدة ذلك في واقع فاق بجنونه كل خيال؟ ولماذا نتمسك بعلمية التوثيق في عالم ثبت فيه أن العلوم والحقول الأكاديمية بكامل بنيتها لم تكن قادرة على إنقاذ حياة طفل، بل ساهمت مساهمة مباشرة في تطوير آلة القتل الإسرائيلية؟ أم أننا، من جهة أخرى والآن تحديداً، بأمس الحاجة للفصل الحاد بين التوثيق والفكشّن لكي نطلق جماع الخيال دون أي ثقل واقعي؟

أو مثلاً: ما معنى الورق أو حتى نشر النصوص في صفحات إلكترونية بين جبال الركاب هذه؟ ما الجديد الذي يمكن أن يُخلق في كتابة الغزيين على حجارة الركاب؟ تلك التي تحول النص أيضاً إلى عمل فني له أصل ومكان يمكن زيارته، فيتحول الأدب معلماً، شاهداً مكانياً في رقعة لا يدخلها سائح ولا مسافر. وحتى حين تُصوّر الكتابة على الركاب، وتُشر عبر الإنترنت، تكون صورة شاهدة على مكان ولحظة، ويصعب نسخها وتحويلها لنص جاف دون خلفية المكان؟ أو، على ذات المنوال البصري، هل ينبت شكل جديد للقصيدة يتجاوز العامود ويتشبه بتقسيم غرف بيوت الشعراء المهدومة، ويجدد علاقتنا الشعرية التاريخية بالأطلال؟

أم أننا، مثلاً، ننزع لاحتقار البصري في واقع تسطح رمادياً، وتشكّلت ذاكرته بانقطاع الكهرباء وحجب الرؤية ليلاً، ونختار أدباً صوتياً يشتغل بذاكرة الانفجارات والاهتزازات غير المرئية للمكان؟

ومثلاً، وطبعاً، ما هي أظرف الطرق لبهذلة الناشر/المحرر/المترجم الأجنبي الذي سيأتي كما العادة ليفسّرنا ويفهّمنا ويدّعي إنقاذنا...

(3) قد يقول قارئ، أو تقول قارئة، عن هذه السطور: ماشي، ولكن لماذا يُكتب هذا كله في مجلة تصدر عن مؤسسة معنية بأدب الأطفال واليافعين والتعليم المجتمعي؟

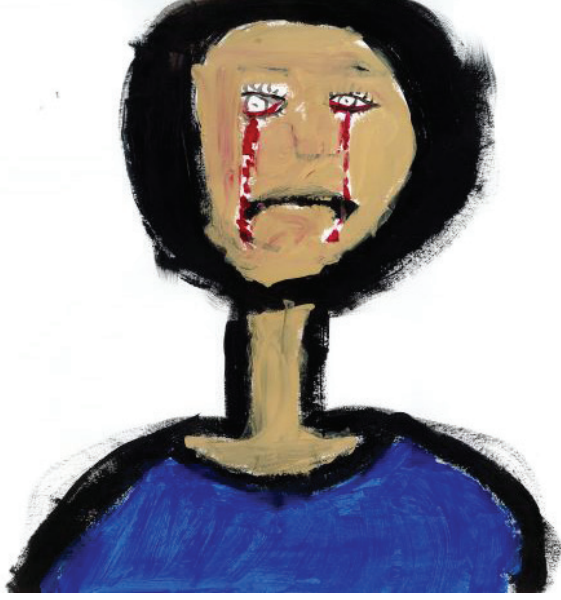
الإجابة، ببساطة، كالآتي:

كل ما تقدم غير قابل للسيطرة ولا للتحكّم. قد نتوق إليه وندفع نحوه في تجارب فردية وجماعية، لكن لا يمكن فرضه بأي شكل من الأشكال. بل الأرجح أن تتبخّر الأسئلة أعلاه وتنتج أسئلة جديدة لم نفكر بها بعد. لا يمكن لأحد أن يحسم كيف سيقراً الناس وكيف سيكتب الشعراء وكيف ستتفاعل الحالة الثقافية مع طيف واسع من العوامل على امتداد السنوات القادمة.

لكن الأكيد على كل الأحوال، أن الأطفال واليافعين هم

هذا أنا وهذا شيءٌ يقلقني بطلٌ واحد، وكومة أحداث

هاني السالمي



قبل أن يدخل شوك القنفيذ في جلدي، كنت معتاداً أن أرفع يدي للسماء، موشوم عليها جرس نحاسي وهلال فضي وبوق حديدي. لا يهمني نوع الكلمات التي أرسلها للسماء، سواء كانت بطعم البرتقال الغزاوي، أو تشبه الشمع في الكنائس، أو رقيقة كالكخبز المقرمش. كنت أخبر السماء عن كل شيء أريده، خاصة أن تكون مولودتي القادمة شعرها أسود، وعيونها ملونة، وصوتها عند البكاء يشبه صوت فيروز. وأن تصير جيوبى دكاناً كبيراً للملابس والطعام والمكياج والخضروات والفواكه واللحوم والماء المثلج، حتى لا أغضب من زوجتي برديّ اليومي: «لا يوجد معي ثمن أحلامك». كنت أفهم أن الأحلام فقط تخرج من جيوبى.

ولأنني أجيد اللغة، كنت أيضاً أطلب من السماء طعاماً للعصفور الدوري الذي ينام فوق سطح الجيران، ولا أنسى دراويش الحارة، أن يجدوا مكاناً ينامون فيه ويخبئوا ملابسهم المهترئة. مرةً طلبت من السماء أن ترسل قدماً خشبية من الزان لجارتنا التي تبيع عند عتبة بيتها السمسمية والفسنقية والنمورة، حتى تركض خلف الأطفال عندما يسرقون منها أي قطعة. وأن تعطي عضلات مدورة قوية للرجل الذي يجرّ عربة المهلبية بالعلس من سوق المدينة إلى بيته ليلاً، ليصل بها قبل أن ينام صغاره

يتناقض، جذرياً، مع حرية العقل. يدل على خضوع لهيمنة اللغة السائدة وسلطة الرموز التقليدية.

مهمة الأدب الفلسطيني اليوم هي التحلّي بجرأة تتجاوز كل منطق، تتشبّث بتجربة غزّة بكامل عظمتها وتناقضاتها، وتحترم اختلافاتها وعوالمها المتضاربة دون غربلتها سياسياً، والاندفاع نحو (ومن أجل) كتابة أدبية جديدة تنقضّ على مجنزرات الأدب المحافظ، غير التجريبي وغير المنتفض على اللغة. لا لكي نكتب عن غزّة، إنما لكي نكتب عن العالم وعن الإنسان عبر ملحمة غزّة.

اللغة - أي طرق الكتابة والتعبير التي نعرفها، مباني الجمل والفقرات والسرد والشعر، والأهم من ذلك، وظيفة الأدب وطرق تداوله ونشره، صلته بالمجتمع، علاقته بالتجارة والريح والخسارة وتحولات العالم وثقافته من معارض وحكومات وجوائز واقتصاد أدبي كامل - هي مبان لم تعد قادرة على استيعاب ما حدث. بل يمكن القول إنها كانت شريكة في تشكيل واقع الإبادة. لا يمكن التفكير بغزّة ولا الكتابة عن هذه الحقبة من دون قطيعة حقيقية للغة الأدبية القائمة باعتبارها نظاماً رمزياً مهميناً.

وعلى هذه الطريق، نحن لا نعرف أغلب الأجوبة، حتى أننا لا نعرف أغلب الأسئلة، وهذا ما يصعب المهمة. وظيفتنا أن نهيئ المساحات ونتيحها ونؤهلها لحرية الحركة الأدبية. وظيفتنا أن نوظف قدراتنا لحماية المساحات من السيطرة والقولبة والنزعات التقليدية والاستغلال. وأن ندافع عن التجارب مهما اختلفت عنّا، أن نفسح براحاً، بالأساس وقبل كل شيء، للتجارب التي لا نفهمها. وأن نعطي الأطفال واليا فعين شيئاً واحداً: الثقة بأنفسهم، الثقة بلغتهم المتشكّلة، الثقة بقدرتهم على الإنتاج، على النشر دون وساطة، على نسيان كل شيء، على اختراع كل شيء. إعطاءهم الثقة الكاملة بأنهم قادرون على «الكتابة» دون «قراءتنا».

ما فعله أهل غزّة، وما عاناه أهل غزّة، لا يمكن استيعابه. وعليه، لن نستوعب التجارب الأدبية التي ستندفع من غزّة، أو ستتبع منها. لذلك: واجبنا أن نُفسح المجال والأمان، أولاً وقبل كل شيء، لكل ما لا نستوعبه بتاتاً.

وزوجته صاحبة الصوت الجهور.

وكنت أطلب منها أيضاً أن يرغب زبائني باحتساء كأس قهوة آخر مني، وكنت أردد بشفقة أن تقبل دار النشر الأجنبية كتابي الجديد وتشره، ولا تعاقبني لأنني أسكن في قطاع غزة، وترفض كتابي لأنه يفسر كيف يلمع جدِّي مفاتيح بيارة الزيتون القديمة، وأظهر فيه تفاصيل تطريز ثوب جدتي يوم عرسها، وسرّ مغلي المرمية الذي يشفي وجع البطن، وصوت أغنام عمي التي تشبه مقطوعة الخلود. فأنا أكتب عن البندقية الطويلة المخبئة بين ملابس العائلة في الخزانة، وعن الوسائد المرسوم عليها القبة الصفراء وأجراس كنيسة المهد ووجه سميرة توفيق. أخاف أن تكشف عن أنفاس شاعر الشجرة بين الكلمات، ونزق محمود درويش، وشعر غسان كنفاني المجمع. أخاف أن تكتشف أنني من فك قيود حنظلة في رسومات ناجي العلي. وأختصر الكلمات عندما يأتي في خاطري الخنافس السوداء أن تعبر الشارع دون أن تدوسها عجلات السيارات المسرعة. فأدعو لها أن تفلت كما يفلت الطالب من العقاب المدرسي لأنه ترك الواجب وركض خلف كرة من قماش بأرجل حافية.

كان القنفذ بعيداً عني، وشكله جميل، كأنه فأر يرتدي سترة تركها الخياط دون أن يكملها. (القنفذ هو الحرب). فجأة تضخم القنفذ بحجم ديناصور من العصر الطباشيري، وركض نحوي، وفقدت بوصلة الهروب، فدخل شوكة في جلدي.

صرت أركض في الشوارع على شكل شاحنة كبيرة تحمل الناس والبيوت وقت النزوح. أركض وأركض كدجاجة مصابة بفقدان التوازن. في وقت من الأوقات أصبحت حماراً ينهق والناس تركب فوقه، وثوراً رمادياً في الحلبات الإسبانية مصاباً بعشرات الرماح. أصابعي صارت طويلة كأصابع الساحرات، وأقدامي من كثرة الركض وراء الخبز والماء صارت كأقدام الفيل. أخزن الكثير في رثتي من الأكسجين خوفاً أن ينتهي أو يرتفع سعره، كالسكر والزيت، والمسامير والشامبو وقطع الصابون، ومرابط الشعر وفرشاة الأسنان.

بعد أن دخل شوكة القنفذ في جلدي، كنت أرتدي سترة لها جيوب لأضع فيها قطع البسكويت عندما يعطينا أحدهم «منة»، وبنطالاً قوياً واسعاً حتى لا يتمزق من عراك الطوابير. أحمل في حقيبتي بطاقتي الشخصية وصورة جماعية لعائلتي وكرت التموين وصوراً عن شهادات

ميلاد بناتي، وبطاقة الدواء المزمّن لأبي وأمي، وشاكوشاً وخيطاناً وأسلاكاً وأكياس نايلون ومقصاً وسكيناً وحبّة مسكن وبخاخة فينتولين موسع للقصبة الهوائية. وأي قطع قماش أو خشبة أو حبل أجدها في الشارع أحملها لأكمل جسد الخيمة التي أسكن بها، التي لا تكفي أن تفرد أقدامك ولا تستطيع أن تغسل وجهك ولا تحلم بها، فيخرج حلمك من رأسك كسهم فيثقب سقفها. وطوال النهار والليل وأنت تلاحق الزواحف والحشرات والشمس والعمّة لتمنعها أن تشاركك مساحة الخيمة.

أتجنب الأماكن في المشي والركض خلف الماء والخبز التي تسكن بها عشيقاتي القديمات، حتى لا يرينني وأنا رث الثياب، فيفرضن عليّ لغتي الأنيقة التي كنت أهديها لهن قبل أن يدخل شوكة القنفذ في جلدي. وأخفي وجهي ولهاثي عندما أقابل أحد تلاميذي من كتاب السرد، فيكتب عني: «رأيت الأستاذ بدون نظارة شمسية وبدون عطره المفضل». لكن بكل صراحة، لا أحد ينتبه لأحد في هذا الوقت، وجهاز الذكريات تعطل وقت التشابه العظيم في هذه الحرب.

وأنا أنتظر مع مجموعة من الرجال والسيدات أمام شبك مطلي باللون الأزرق لنحصل على المعلبات وقليل من السكر والخضروات، وجدت قطعة من زجاج المرايا بالقرب من بيت صار كومة من الحصى من وراء القصف. ارتعت وحاولت ألا أرى وجهي فيها أو شكلي، لكنني تشجعت ونظرت لوجهي. وقبل أن أدقق في ملامحي الجديدة، لساني نطق جملة: «هذا أنا، وهذا شيء يقلقني». وجهي كشقوق الطين الجافة، تحول إلى خرائط التيه. وعيوني غائرة في جمجمتي تحتاج لمقطع شعر لتعيدها لمكانها المناسب، وخدودي بها ممرات جديدة من شتاء الدموع التي تنزل بدون قصد. وشعري زاد تجاعيده، وكبرت دائرة الصلع في منتصف رأسي.

الجميع أحب أن يلعب معي هذه اللعبة وينظر إلى وجهه في المرآة، وكنت أسمع دقات قلوبهم كقنابل صوتية. مررتُ المرأة لهم واحداً تلو الآخر، فانطلقت النكات من أفواههم كالخيول السباق لا تتوقف حتى تصل للنهاية. منها: «أصبحت عجوزاً»، «أنفي أصبح طويلاً»، «وجهي كرجيف الخبز المحروق»، «رأسي كراس الفجل الأحمر»، «شفاهي أصبحت كشفاه إسماعيل ياسين»، «رقبتي كرقبة الجمل»، و«جسمي كأحدب نوتردام». أين ذهب ملامحنا الجميلة؟ صرنا نضرب بعضنا البعض لعلنا نفيق من الصدمة.

المنتزهات العامة. أصبحت كلاصق على جفونهم كشاشة عرض كبيرة تعرض فيلم كرتون.

علمتهم كيف يشمّوا رائحة الفكرة كأنهم صياد أفريقي، ويخرجوها من ثقبها ويصنعوا حفلة شواء عليها. علمتهم كيف يحكوا جلدهم من تعب اليوم فيتساقط كأغنيات تغنيها ريم تلحمني فوق جبال بيت لحم. علمتهم أن يمسخوا الغبار عن أضواء السيارات لتكشف لهم عن حفر الشوارع فينجوا من السقوط، وأن يدخلوا في عقل مايكل أنجلو ويصيحوا لوحات يعلقها على جدران الكنائس الطويلة. قلت لهم: «فليسقط المكان والزمان عندما تكتب، فأنت المكان كشارع في فرنسا به أعمدة إنارة لا تتطفئ، وسيدة تمشي من تحتها بفستان الأميرات تتلعل حذاء كعب عال أحمر. والزمان هو أنت، يحدتار المؤرخون أين يضع زمانك في كتب التاريخ، لأن زمانك به رائحة الطين وانشقاق القمر وقرع الأجراس فوق شجرة الياسمين. أنت الزمن الذي تتحكم بطول الليل والنهار، وتتحكم بالتركيب الجيني للعشاق والراجلين في القطارات السريعة».

قلت لهم: «أنت البطل، لأنك تشبه دون كيشوت وقميصك من ورق الكرتون. أنت البطل حتى لو تكرر طعامك اليومي. أنت البطل حتى لو ضاقت عليك الخيمة. أنت البطل حتى بعد غياب أبيك من وراء القصف الأخير. أنت البطل وأنت تحمل دلاء الماء وتوزع الخبز كالسيد المسيح على عائلتك والجيران والحواريين. أنت البطل حتى لو زاد وجع ظهرك وضعف بصرك وخف وزنك من قلة النوم من صوت الطائرات».

قلت لهم: «أنت النهاية، وعليك أن تختار النهاية المغلقة لنصك كما تغلق حديقة الأغنياء أبوابها أمام الجوعى. عليك أن تختار نهاية مغلقة كما تغلق باب الخيمة عليك، أو تغلق أزرار سترتك وقت الريح. فلتكن نهايتك قوية كخشب القوارب، وجميلة كطلاء الأظافر الأحمر، كلون حناء أصابع جدتك، ناعمة كضحكة طفل حصل على علبه ذرة صفراء حلوة المذاق».

لم نقف وقتها على شكل دائرة أو مربع ناقص ضلع لنكتب. كنا نعطي ظهورنا لبعض، كأننا غرباء. كل واحد يكتب وله أذرع أخطبوط: ذراع للخبز، ذراع للماء، ذراع للخوف، ذراع للخيمة، وذراعين للكتابة. لا أحد منا يرى ما يكتب الآخر، ولا نعلم لمن نكتب، ولا يوجد شماعة ملابس لنعلق عليها نصوصنا، أو حبل غسيل. فقط كنا نكتب إلى السماء، ولتصبح أرواحنا خفيفة رشيقة تقدر أن تقفز خلف السياج

حاولت أن أعطي المرأة للسيدات، لكنهن رفضن أن ينظرن لوجوههن، لأننا كنا لهن المرآيا، فشاهدن أنفسهن دون اعتراض. أمسكتها وألقيتها بعيداً فوق كومة من القمامة، فدخلت في جثث حمار لم يمض على موته سوى ثلاثة أيام. ملامحنا الجديدة لا تليق إلا أن تدفن في هذا الجسد... الرجال عندما تفقد ملامحها تضحك كثيراً، أما النساء فتعلم أن الملائكة هي من تسرق الملامح الجميلة وقت الحزن.

حاولت أن أزعم عن جلدي شوكة، وأذهب لأبحث عن الأولاد والبنات الذين يكتبون في مخيمات النزوح. وقد قرعت الأجراس وقابلتهم كما تقابل الإوزة صغارها بالرقص في بركة الماء. لأنني أحمل معتقداً داخلياً بأن الكتابة هي من تقاوم الريح وتحول الأقدام إلى جذور في الأرض. وحدها الكتابة تستطيع أن تصلح ثقب سترتك، وتضيف فصلاً خامساً للطبيعة. ولأحصل على مجموعة منهم، كنت أشاركهم طابور الماء المالح، وطابور الخبز، وأقول لهم بأن صوت الطائرات والقنابل هي موسيقى تصويرية لما ستكتبون. شكل الخيمة المثلث البشع والجروح التي حصلت عليها من عراقك الأخير حول شباك الكوبونات هو ذروة الأحداث في نصك العالمي.

فقط عليكم أن تكتبوا كما كتب الأجداد على جذع النخيل بالفأس والعرق. اكتبوا لأصحاب الياقات البيضاء وربطات العنق كلمات تجعلهم يشنقوا أنفسهم فوق الموائد الفاخرة. عليكم أن تكتبوا عن صوت جوعكم الذي يشبه طبول سكان أمريكا الأصليين حول النار قبل أن يمحووا من ذاكرة الأرض. اكتبوا حتى يزيد اتساع ثقب الإسفنجة لتبتلع دموعكم قبل أن تسقط في صحن الفاصوليا والبازلاء. الكتابة ستصنع لكم ألعاباً من قماش وخشب، وبعد أن تلعبوا بها، تضعوها في فرن الطين لنضج طعامكم الأخير قبل أن يشم رائحته جنود الدبابة الكبيرة بقبعاتهم الحديدية وجيوبهم المليئة بالرصاص والبارود والشوكولاتة والماء الحلو البارد.

حين أقابل الأطفال وأحثهم على الكتابة، كنت أدخل في رؤوسهم كذكريات قبل الحرب أمام محل البوظة، كقرمشة المكسرات في أفواههم، كأناقة الزي المدرسي ورائحة المقاعد المدرسية، وحراراً كفلافل الصباح. كنت أدخل في رؤوسهم كشباك مفتوح على الساحة الخلفية لبيوتهم، تطل على حوض النعناع والفراشات المرقطة التي تدور حول صحن السكر. أدخل فيهم كفيثامين سي مضاد لنزلات البرد، أو كوجبة كاملة الدسم، أو كوقت الأرجوحة في

الكتابة من أجل الحياة

محمود الشاعر



ليس أمراً سهلاً أن أكتب الآن، عليّ أن أوازن بين كوني أباً لتوأمين يحتاجان إلى الرعاية والأمان، وسنداً لهما، وبين كوني كاتباً يتحمل مسؤولية الكتابة. في كثير من الأحيان، أجد نفسي في أماكن غريبة، أماكن لا أعرفها ولا تعرفني، بين مدّ من الخيام، وحدها الكلمات تمنحني الثبات في عالم مضطرب.

في وقتٍ يستمر فيه زمن الإبادة الجماعية، أجد نفسي محاطاً بمشاعر متضاربة بين الأمل والصمود والألم. تدل عليّ محاولات حثيثة للكتابة كأنها أثر، محاولات لإيجاد كلمات ومساحات لفعل ثقافي تفتح مجالاً للتعبير عن تجربتنا في مواجهة الموت. إن الكتابة، رغم كل شيء، تبقى طوق نجاة وشهادة حية على المعاناة التي نعيشها.

منذ 450 يوماً، تشهد غزة تدميراً غير مسبوق. البنية التحتية الثقافية التي كنا نبنيها ونتبنى فيها مساحات للحوار والتفكير والبناء، تم محوها. مكاتب، مساحات ثقافية، ومعارض فنية تحولت إلى ركام بجانب مدينة كاملة. ضاعت أماكن كانت تُشكل نقاط ارتكاز لخيالنا الجماعي.

محاولة للتصدي للخراب، نصوص وحوارات مفتوحة مع الأصدقاء لتوثيق آخر لحظات المدينة، كنت أزرع بذور الأمل في تربة باتت مليئة بالدمار لكنها لم تنبت، وصارت كل بذرة للأمل جثة من اليأس تروي كيف نتخيل

لتسرق ورق العنب الأخضر. نكتب لنصير وتداً للخيمة، لتصير منفوخة كحلولى غزل البنات.

بعد أن تكتب ماذا تحب وكيف تحب أن يراك العالم، يمكن أن تقف مرتاحاً في الطابور الطويل، وأن تنظم دقات قلبك وقت القصف، وتساعد ذلك أن يمشي خلفك دون خوف. بعد الكتابة ستعرف أن تجيب عن السؤال السرمدى: ماذا تعني كلمة وطن تحت سقف الخيمة.

يوماً بعد يوم، كبرت أشواك القنفذ فوق جلدي، ولم أجد أحداً يزيلها عني. يبدو أنني تحولت إلى قنفذ بري. هذا أنا، وهذا شيءٌ يقلقني.

الارتقاء

محمد الجبري



في الحرب، يتسدد الدم الأفق وتُباح طفولة المعنى. تنهال الأجساد على فتورها في الغفلة، وتجرح الأصوات بنصل الخرّس، لكنها تبقى كحجارة صغيرة تتدحرج فوق البلاط المستباح، لتتقدم الخطى أميرة إلى الصدى البعيد عن عيون الأعداء. وبهذا، يتبع الكاتب حدسه، محاولاً أن يعيد الحجارة إلى طينها.

أكتب بلا هوادة في الحرب، بشراسة الموت ولهفة النجاة. أكتب محتملاً الطريق التي لم تحتفل بها خوذ الجند وبساطير الشعارات. أكتب بعيداً عن محنة الوصول، قريباً من جرحي وجرح الناس. ومع يقيني بأن الكتابة لن توقف الطائرات عن أهدافها، ولن تصد الموت الذي صار كالخس المكسد في الأسواق، كما عبّر مريد البرغوثي، ولن تسد جوع الجموع الواقفة في طوابير لا نهائية أمام المخابز وأماكن توزيع الطحين، ومع يقيني أيضاً بأنني سأكتب ما أكتب وأعود من قلق الكتابة إلى القلق من الموت قصفاً أو جوعاً أو عطشاً، فكل احتمالات الموت واردة هنا، في هذه البقعة الصغيرة من العالم، التي بمساحة العالم أو أكبر قليلاً.

لكنني، في مقابل هذا كله، أدركت سقوط الإنسان، وسقوط الحضارة، وسقوط الأسماء والقيم في الكتابة. أدركت ما لم تبصره العيون حتى وهي مشرعة على ضوءها، وبهذا العماء الذي يشبه الانتحار في الحقيقة، أراني أحميد عن

أسوأ الكوابيس من داخل مواقف كانت تُعتبر أسوأ كوابيسنا فيما مضى.

محاولة للتصدي للخراب، جاء لقائي مع شباب وصبايا الفرق الشبابية التابعة لمؤسسة تامر للتعليم المجتمعي، فسحة أمل نادرة مدتها ثماني ساعات، خضنا معاً رحلة في تأمل الذاكرة والأرشيف الشخصي والمشاع. كانت تجربة غنية بالمعاني، نصوص وشهادات أظهرت حاجتنا العميقة إلى وجود مساحات مشتركة للتفكير والتأمل والمساندة والشفاء. واكتشفت أن الأرشيف الشخصي والمشارك لا يقتصر على كونه وسيلة لتوثيق آخر لحظات المدينة وماضيها وماضيها فيها، بل يمكن أن يكون أداة للتصالح مع الألم، ونافذة لاستشراف المستقبل رغم أنف الخراب والحرب. نصوص وشهادات لم تكن مجرد كلمات، بل هي صوت الأجيال وصوتنا جميعاً، نُصّر على الحياة رغم الإبادة، وهي وسيلتنا لمقاومة النسيان.

محاولة للتصدي للخراب، أعيشها وحيداً منذ بداية الحرب، تطل عليّ أخبار استشهاد الأصدقاء وفقدانهم خلال الحرب، وسافر جميع أفراد عائلتي دون فرصة واحدة لوداعهم والسلام عليهم. تجيء الأيام تبعاً، وينقص ظل صديق وحبيب وقريب وجار من صورتنا الجماعية المتخيلة. الكتابة محاولة لالتقاط ما لا يلتقط. القصف لا يتوقف، والأخبار تجاوزت أسوأ كوابيسي: أحياء كاملة تُدمر، عائلات تمحوها الصواريخ في ثوانٍ، وأسماء تتحول من الحياة إلى الموت والشهادة. كانت جميع محاولاتي وما زالت محاولة للإمسك بعبارات يمكن أن تصف هذا الجنون. وأتساءل: كيف تصف الفراغ الذي يتركه القصف والاجتياح؟

الكتابة أسلوب في حماية نفسي وما تبقى من إنسانيتي، أريد أن أقول إنني هنا. وأريد بالكتابة أن أتجاوز الموت اليومي الذي يتسلل في كل اللحظات. أكتب بحثاً عن المعنى.

من أحاديث المقاهي والشوارع ومواصلات النقل والأسواق وحتى داخل جلسات الأصدقاء أو العائلة، كانت الأشياء واللحظات والصفات تبدأ من حيث بدأت الحرب، لا قبلها. أي بمعنى أننا صرنا نحكي بذاكرة جديدة كلياً، وبعيدة عن الذاكرة الأولى. وبهذا، كنت أرى دائماً أن هدف الاحتلال من هذه الحرب لم يعد فقط ما تم الإعلان عنه أو التلميح له عن التهجير والمحو العرقي الكامل للشعب الفلسطيني في غزة أو حتى في فلسطين أجمع. وبعد أن صاروا على يقين بأن هذا أصبح في طور المستحيل مع شعب يحتمي بهويته، كان الهدف الأول لهم أن يصنعوا الإنسان الذي أرادوا له أن يكون هنا: إنساناً جديداً بذاكرة جديدة، يقبل بأي شيء، ولا يقبله شيء. فكانت هذه التجربة تجربة مهمة بالنسبة لي لأحترس وإياهم من الانزلاق فيما جاءت لأجله الحرب فبدأنا في الكتابة، الرسم، الغناء، الخوف، الموت، الاحتفال والعزاء، بانصياع كامل لإنسانيتنا، وذوبانها العالي في هاجس ودم صاحب الأرض الراض، الذي يستعين بالذاكرة وأدواتها الحاضرة لمجابهة الغريب عنها.

وبهذا، كانت الكتابة تأريخاً، وسيفاً، وذاكرة، وكانت في أبد تدل على بئر الحقيقة، بعيداً عن أيدي الوهم وخيالات القوة. ومع كوننا في الأصل نملك لغة المكان وحاضره، كانت هي ما ينقص الآخر الذي يعاني من شرخ كبير في مفهوم القومية لديه، لأنه فاقد للغة المكان. وبالتالي، يكون غريباً حتى في خيال الأرض لا في عبورها إليه. فكان انتصارنا بها دائماً، بكامل ضعفنا وتشظينا وقتلتنا بها نؤسس الانتباه من جديد غير منفصل عن قديمه، وبها نعلو حافلين بأوممة الأرض، طاعنين وكاشفين لا هوية الآخر.

الواقع وأنا أكتب الواقع نفسه. أراني أجول في الهامش حراً وأنا في قيد المتن القاسي. أراني أهذي بما يجب قوله في المنابر والمحاكم والشاشات والطرفقات والأحلام والصحو الخالي من شمس الكاذبة. أراني أقول ما يحتمله دمي وما يحترم عفن جسد الذبيحة. فالكتابة، بقصر سورها وطول بياضها وطفولتها، حصنٌ كامل يرتخي في مرمى يدي.

في الحرب، ألتهم الأقلام والصحف والكتب، وما يسيل من جهة الكلام، وما يُغنى في سر العتمة، وما يحاول قوله الموتى، وما يكتمه القتلة الضعفاء. ألتهم الدم. فماذا أكتب غيره في وصاياي؟ عن الحب، عن الورد والمائدة، عن الكأس والماء المكسور، عن العيون الكثيرة والفريسة الوحيدة، عن المفقودين والمدى الذي يصير بضيق الصرخة، عن الأحلام المبتورة وترهل الأمل الثقيل، عن اليأس الأحلى والجنازات المدججة بالشموس، عن القبور الجماعية واليد الوحيدة فيها، عن براءة الأطفال وخيال النوم الناقم من أشباحه، عن الالتفاتات ومنازل القلب الموصدة، عن الأبواب المشرعة والأفق المقتول في سرائر الحرير.

بماذا أكتب غير الدم؟ عن الماء الذي كان أجسادنا؟ فُتت بالكتابة في هذه الحرب أكثر، وآمنت بها أكثر وأكثر من أي شيء، وكفرت كثيراً بما دونها وما يعلوها، وما يحفها بخنجره من الأسفل. وبهذا التصديق الكامل كتبت مجموعتي الشعرية «خنجر في النشيد» وأصدرتها من قلب الموت عن دار «كل شيء» في حيفا. هناك، في اليد الأخرى من البلاد، في الضفة التي حلمت طويلاً بلمسها، وها هو تصديقي يكون صديقاً للحلم الضائع. وما أكثر الأحلام التي تصغر في الحرب، وتتكور وتتججر، وتصبح كتلاً من الفحم في شرايين الجسد. وكتبت أيضاً، بكامل العنفوان والحيرة، مجموعة أخرى بعنوان «كيف للحقائب أن تصبح حامليةا؟» وها أنا أنتظر صدورها بعيداً عن هذا الجسد.

ويمكن الإشارة هنا أيضاً إلى أنني عملت مع مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي في مسارها «العودة إلى البيت» من خلال الكتابة الإبداعية مع الأطفال. وكانت هذه التجربة باباً مشرعاً لي لأقرأ ما تقوله الأرض المذبذبة في عيون وأيدي وأحلام هؤلاء الأطفال، وأبني معهم ذاكرة قديمة حاولت الحرب قتلها فينا. فمن خلال معابنتي لهذه التجارب الحقيقية وغيرها، ليس فقط من خلال النصوص الإبداعية التي تم إنتاجها من هؤلاء الأطفال، بل

الكتابة على صفيح الحرب

يسري الغول

كلما عدت بالزمن إلى الوراء مع بداية هذه الإبادة، أصابتي غصة عظيمة، إذ ارتكبت فعلاً مجنوناً شنيعاً يستوجب اللوم الدائم، لقد أحرقت دفاتري ومذكراتي، وضعتها أسفل إبريق الشاي، ليغلي مع الأحداث المترامية في تلك الدفاتر. هي المرة الثالثة التي ارتكبت فيها تلك الخطيئة، ليس لأنني ملتبس المشاعر أو أعاني انفصاماً، بل خوف من مصيبة أكبر، أن غزة مشاع، وكل شيء مستباح، يمكن للاحتلال أو اللصوص اقتحام البيت أو المكتبة للحصول على ما يريدون بلا خوف من أحد، فكيف حالي إن وقعت تلك الدفاتر الملونة بيد مجرمين ممن يهاجمون المؤسسات والبيوت؟! ماذا لو قام أحدهم بنشر تلك اليوميات عبر وسائل التواصل الاجتماعي؟ كيف سأفعل إن قام لص بتعريتي أمام العالم؟ كل أسراري ولحظات ضعفي تنشر على الفيسبوك أمام العامة، وربما على الإنستغرام ومنصة X، كأن يكتب أحدهم بسخرية قائلاً: انظروا، هذا هو الجانب السري الغارق في السواد للكاتب الفلسطيني المعروف يسري الغول؟ هذه لحظات الجنون الخاصة بالروائي الغول، أو تعالوا وشاهدوا الغسيل الوسخ لأشهر قاص في غزة. يا إلهي لحظتها ماذا سيكون موقف إخوتي وأقاربي وجيراني وأصدقائي وصديقاتي؟ ما هو موقف زوجتي حين تعلم أنني كنت أتشاجر معها على الورق لأنني عاجز عن ذلك في الحقيقة؟ هل سيغتالوني بحروفي؟

لأجل ذلك بحثت عن دفاتري في المنزل، واكتشفت أنها غير موجودة. كنت قررت يومها التجهز لعملية عسكرية واسعة، حملت معها قوتي ورباطة جأشي، تسللت بين الشوارع والأزقة لأصل البيت مثل جنود فرقة الكوماندوز، كانت الطرق خالية إلا من طائرة مسيرة في السماء، ترصد مشاعرنا، وتتلصص على قسماات وجوهنا، فتحاول اغتيال أي بسمه أو لمسة فرح، وحين وصلت المنزل المهجور، دخلت وكان الباب مفتوحاً، إذ كانت منطقة أرض الغول (حي المرابطين) منطقة عسكرية مغلقة، لا يوجد فيها أي حيوان أو طير سوى أرنب تائه، يومها عدت به إلى مكان نزوحي عند أمي، وقررنا الاحتفاظ به ليصير كاتم أسرارنا، لكنه مات في اليوم التالي لهول القصف، وانطفأت روحه إلى الأبد.

داخل المنزل كان الفراغ، الجدران مدمرة، الملابس

والخزانات وشاشات التلفاز وكل شيء تهاوى مع الركاب، لكن مكتبتي هي التي صمدت ولم تتأثر بالوجع أو الحرائق، بحثت بين الكتب عن دفاتري الخاصة، ونسيت حمل إصداراتي التي حصلت عليها بشق الأنفس من عمان وبيروت والجزائر ومصر، لأن غزة محاصرة، والجنود المدججين بالحقد لا يحبون المثقفين، ولا يحبون الفراشات كما تقول صديقتي أحلام، عدت إلى مخيم الشاطئ أهرول، أشاء الطريق هرب الأرنب فلحقتة، وصار حالنا يشبه «زينفو ورينفو» أو حتى تشارلي شابلن، وعندما أطلقت الزنانة (طائرة الاستطلاع) صاروخها علينا اختبأنا تحت جدار متهالك، أنا والأرنب، فحملته وهو يرتجف، كأنه يعاهدني ألا يتركني بعد المغامرة السخيفة التي وقعت لحظتها.

كان جلّ تفكيري طوال رحلة النزوح هو تلك الدفاتر: أين ذهبت؟ وكيف لي الوصول إلى أوراق تعني لي كل شيء؟ ثم هل سيدرك الجنود أو اللصوص أهمية ما سيقع بين أيديهم؟ أم لعلهم يركلونها بأقدامهم معتقدين أنها دفاتر نسوية، تكتب إحداهن بداخلها بعض وصفات الطعام أو تواريخ وحاجيات زيارات الأصدقاء والأقارب، هذا أحضر معه كيس طحين وتلك أحضرت معها كرتونة بسكويت العودة، وتضع بين قوسين «منتهي الصلاحية». لكنني لم أكتب شيئاً من ذلك، بل أحداث هامة على صعيد العمل والعلاقات الشخصية بالزملاء والأقارب والمسؤولين أو لاد... إذاً ربما سيتجرأ بعضهم مستغلاً الوقت للبحث داخل الأوراق عن حاجة يرضي بها غروره، وكنت أخشى أن تقع بين يديه بعض خيباتي وقصصي الفاشلة في الحب أو علاقاتي العادية مع معجباتي والحاقدين. لا يهم، ما كان يهمني أن تعود الأوراق لي قبل أن يسرقها لص متطف ليبتزني ويطالبني بمبلغ كبير من أجل استعادتها، لكن هل اللصوص يقرأون؟! هل يهتمون لأمرى وكتبي وأحلامي؟ هل سيفكرون، في لحظة خاطفة، في البحث داخل الحروف عن قصة لا تعني لهم أي شيء، لا، لا لن يهتم أحد لأمرى، فلماذا كنت أشغل بالي؟ لا أعرف.

المهم أنني نزلت إلى مخيم جباليا، عندما استهدفوا منازل جيران عائلتي الكبيرة، وأطلقوا علينا القنابل الدخانية والمدفعية والهاون وغيرها، هربنا بلا تفكير، كنا سكارى والقيامة قامت في مخيمنا، وبعد أربعين يوماً عدت مجدداً إلى مخيم الشاطئ الذي كان مدمراً إلا من بعض الحواري والبلوكات، وخلال تلك الفترة عاد الشيطان يحاصرني، يصنع في اللاوعي قصص مؤلمة

يوميّات الحرب على غزة»، لكنني صدقاً لا أعرف إن كنت سأعيش حتى ذلك الحين أم سأغادر هذه الحياة بصاروخ غادر كما حدث مع رفاق كثر.

ما زلت أحلم أن تتوقف الحرب، وأشرع بكتابة تلك اليوميّات، بينما أحتسي القهوة واستمع بهدوء لفيروز التي يناقشها اليوم صوت الطائرات في الأعلى، ويحاصرني الدم على الأرض، حيث لا يغيب عن خاطري الدفاتر والكتب والمكتبة... بيتي الذي دُمّر بالكامل، وذهبت معه كل الحكايات والانتصارات الصغيرة، ترى: هل سأقدر يوماً على الصمود والحفاظ على حياتي، ثم إعادة بناء بيت ومكتبة؟ ربما...

مفتاح العودة، والجدة، وبعض المواربيخ والبارود

براء العاوور

كطائر عالق في السماء بلا أجنحة، هكذا كان ردي كلما سألتني أحدهم: كيف أنت؟ أين أنت؟ كيف تشعرين؟

كنت عالقة في سماء الأردن منذ السابع من أكتوبر، الأردن التي طالما حلمت بزيارتها ورؤية جمالها الذي يشبهنا نحن فلسطينيي غزة، الذين حُرّموا من التمتع بجمال فلسطين المحتلة. كانت زيارتي الأولى إليها بهدف تنفيذ ورشات عمل مع المتحف الأردني الوطني وبعض الناشرين الأردنيين. كان يلازمي انقباض غريب في قلبي منذ اللحظة التي غادرت فيها غزة وحتى صباح السابع من أكتوبر. بعد أن سمعت الخبر، أدركت سبب هذا الاختناق الذي جاء من العدم. في تلك اللحظة، بدأت كل معالم الجمال تتهار أمامي، لتخرج مقابلها صورة ضبابية سوداء ما لبثت أن أصبحت تائهة في داخلها.

أنا هنا وحدي في بلاد أزورها للمرة الأولى، وجميع عائلتي في الشق الآخر من دوامة السواد هذه، في غزة، التي أحببناها بجنون حتى أصبحت مرضاً مزمناً لا نُشفى ولا نتعافى منه أبداً. كنت في وضع لا أحسد عليه أبداً، ما بين الرعب والخوف المتواصل على كل ما أملك في وسط الإبادة الشرسة، وبين وضعي المبهم واللامقروء في بلد آخر، وحيدة لا أقوى حتى على الكلام. كانت كل الحروف ثقيلة جداً لدرجة أن البكاء كان لغتي الوحيدة حين أختلي بنفسي.

حول دفاتري، لذلك قررت الذهاب إلى مقر عملي بمنطقة تل الهوا، لأجل البحث عن كنزي المدفون بين الرفوف، ولا قرصنة على الأرض كي تحاريني بسيفها، بل طائرات حربية وطائرات استطلاع و«كواد كابتير» وغيرها، مغامرة لن أنساها ما حيين.

كان اجتياح شمال غزة كبيراً، والناس تحضر بعربات متهالكة وكارات للحمير و«تكانك» صدئة، يتوجهون نحو الجامعات ومدارس وكالة الغوث للسكن فيها كمراكز إيواء، حتى تنتهي الغمة التي لا تريد الانتهاء. وهناك أخذت أعدو في سباق المسافات الطويلة، أجري بين النازحين، حتى وصلت مقر عملي الذي احتله النازحون القادمون من كل فج وميل، دخلت الباب وقشعريرة سرت في جسدي، كأني تركت العمل بالأمس فقط، بدأت أصعد باتجاه مكتبي في الطابق الرابع، وهناك اكتشفت أن اللصوص دخلوا المكان وسرقوا جميع الأجهزة الالكترونية من هواتف أو حواسيب محمولة، وتركوا لي شاحن اللاب توب فقط.

لم أهتم إلا بدفاتري التي بدأت أبحث عنها داخل الأدراج، وأخيراً وجدتها، كانت عبارة عن ثلاثة دفاتر، واحد لونه أسود، أحضرته معي من باريس، وتحديدًا من قناة 24 الفرنسية، وآخر لونه أخضر اشتريته من مول بمدينة كولالمبور في ماليزيا، والأخير محلي الصنع، من الهدايا التي توزعها شركة اتصالات محلية لعملائها الكرام.

بدأت أقلّب الورق، وقلبي ينبض بقوة: ياه... أخيراً دفاتري بين يدي، وقد زالت جميع مخاوفي. عدت إلى البيت منتصراً، دخلت الغرفة التي أقطن فيها لدى عائلتي، وشرعت بقراءة حروفي مجدداً، التركيز على جميع الأحداث التي أخذت حيزاً في روايتي «ملابس تتجو بأعجوبة»، واكتشفت أن وجود تلك المذكرات تشكل خطراً علي، لأنها تُعرّيني بالفعل، لذلك قررت في لحظة مجنونة إحراق تلك الدفاتر فوق سطح المنزل، كما فعلت مع دفاتر المراهقة التي ساومتني عليها زوجتي بين البقاء أو العودة إلى عائلتها، فأثرت السلام وأحرقت تلك المذكرات، وكان طعم الشاي ثقيلًا على القلب واللسان.

ولأنني مؤمن بأن الكتابة فعل جنون، وأن الأدباء يعيشون عوالم متخيلة، يغرقون في أحلام غير حقيقية في بلاد لا تعرف السلام، قررت العودة للكتابة مجدداً، ولم أتوقف عند هذا الحد، بل اتفقت مع ناشري الكبير في المؤسسة العربية للدراسات والنشر في بيروت بإصدار تلك اليوميّات في كتاب، تحت عنوان «سيوف صدئة... من

بالفخر، ليس لإنجازي، إنما لقدرتي على مواصلة كل ذلك. أكثر ما أعتبره إنجازاً هو القدرة على انتشال عائلتي من وسط الموت بعد ثمانية شهور من ابتداء المحرقة، بدعم كبير ومساندة من أصدقاء كثر، وأشخاص لا أعرف عنهم شيئاً حتى الآن. في ليلة رأس السنة، انهالت الرسائل عليّ بعد مشاركتي بوستر قد رسمته للسنة الجديدة، بما يمثل ويعكس حالة الغزّاي الذي يستقبل عاماً جديداً ملفوفاً بالكفن الأبيض. تلك الرسمة كانت الشرارة التي أوصلت صوتي للعالم. تمكنت أخيراً من إخراج أهلي من غزة إلى مصر، وما أزال حتى اللحظة ممتة حد السماء لكل من ساهم في إنقاذهم. لا أملك من رد الجميل إلا امتناني وشكري للأبد.

تلقيت الكثير من عروض رسم كتب أطفال تتحدث عن فلسطين، ولم يكن أمامي سوى الاعتذار في كل مرة، مع أسفي الشديد على فلسطين، التي لا يعرف عنها مؤلفو قصص الأطفال إلا مفتاح العودة، والجدّة، وبعض الصواريخ والبارود!

إلى أن تلقيت نصاً مختلفاً من مؤسسة تامر، والذي جعلني أبتسم للمرة الأولى وأنا أقرأ نصاً مكتوباً عن فلسطين، كان مليئاً بفلسطين... قراها ومدنها. كان يشبه الطفلة التي بداخلي، وأنا أتخيل فلسطين المحتلة في كل مرة تمنيت رؤيتها ولم أستطع. كنت بانتظار هذا النص، لأضعه أمام الجميع وأخبرهم كم أن فلسطين مملوءة بتفاصيل من الجمال والسحر، وكم يحتاج أطفالنا إلى كتب صغيرة يقبلونها ضاحكين فرحين بما يقرؤونه ويرونه عن فلسطين الجميلة الضاحكة.

أعبتنا اللغة البكّاءة، فكان هذا الكتاب رحلة تعارف جنوبية بين العيون الصغيرة وفلسطين الكبيرة الواسعة، ببحرها وتلالها وخضرة أرضها. عملت على هذا الكتاب بكل ما أستطيع من حب. «تحت الغيمة قرب الخيمة» من أجمل ما رسمت عن فلسطين... عني. تحدثت عن هذا الكتاب بكل حماس وشغف أثناء زيارتي لكوبنهاغن مع فريق مؤسسة تامر، في رحلة التبادل الثقافي والفني في الدنمارك. كانت زيارة مثمرة تعرفت من خلالها على رسامي كتب أطفال، مؤلفين وناشرين من الدنمارك.

أتاحت لي الفرصة للتحدث عن نفسي وعن تجربتي الفنية في رسم الكتب، إضافة إلى استكشاف الفن والتاريخ الدنماركي المختلف والمميز. كانت هذه الزيارة جناح رحمة إلهي آخر جديد، بسطه الله لي ليضع في قلبي

كنت أجاهد لإظهار القوة وريابطة الجأش أمام الآخرين، لكن سرعان ما تنكسر هذه القوة حين أعود وحيدة إلى غرفتي، لأبدأ مراسم النحيب والتوسل إلى الله. لطالما كان حديثي مع الله مختلفاً، كان أكثر ما يمكن أن يضع في قلبي بعضاً من السلام والطمأنينة. كنت لا أدري هل أنا أعاتب الله أم أرجوه وأدعوه بأن ينهي هذه الوحشية، وأن يتترف بحال أهلي وكل من في غزة؟ كل ما أعرفه أنه وحده من كان يعرفني يقيناً، وهذا ما كنت أتكى عليه.

كان لا بد من تجميع شتاتي ولملمة أحزاني لاستعادة بعض من قوتي وتركيزي لمزاولة الرسم مرة أخرى، لا لأنني أريد أخذ دور البطولة والقوة، إنما لأنني لم أكن أملك رفاهية الاختيار. كنت مجبرة على تحدي كل ذلك والمضي قدماً والتفكير في كل ما لا أقوى عليه. لا أنكر كم كنت قاسية على نفسي، أجلدني بسوط الحظ الغبي. هل أنا محظوظة بخروجي من غزة قبل ابتداء هذه المحرقة؟ أم أنني الأقل حظاً على الإطلاق، لدرجة أن يلقي بي الله خارج هذا الرباط والابتلاء ليحجب عني ثمرة الصبر؟

بطريقة ما، نجحت في إسكات هذه الأفكار لبرهة، وأيقنت أن كل ما يحدث مقدّر، وأن الحكمة وراء كل ذلك موجودة حتى وإن لم أستطع رؤيتها. كل ما كان عليّ فعله هو الدعاء بأن تكون في هذه الحكمة ما هو خير لأهلي ولي. كانت هذه اللحظة التي بدأت أرتب فيها أفكار مستتدة كلياً إلى صلوات الاستخارة، حيث لم أملك من القوة شيئاً للتفكير وصنع القرار المناسب. لذلك، كانت حيلتي الوحيدة هي إلقاء كل ذلك على تقدير الله ورحمته، وفعلت.

عدت لمزاولة الرسم وإنهاء بعض المشاريع العالقة في بداية نوفمبر. حاجتي للمال كانت دافعي الأول، حيث كانت لدي التزامات مالية كبيرة، من دفع الإيجار والفواتير، وتحمل تكلفة المعيشة الباهظة في عمّان. لم أكن أعلم أن ضغطاً قوياً ومختلفاً كهذا سيجعل مني فتاة خارقة قادرة على إنجاز أصعب المهام في وقت قياسي وبجودة ممتازة! هذا ما حدث في رسم كتاب «أين سأتخلص منك يا حصينة؟»، الذي أنهيته في مدة لا تتجاوز الأسبوعين، وكانت النتيجة صادمة. كيف أمكنني أن أصنع كل هذا الجمال وسط هذه البشاعة والوحشية؟ لا زلت حتى الآن أملك مفاتيح إجابات كل الأسئلة التي بدأت تنبش في رأسي في بداية كل هذا. هذا الكتاب، بحسب آراء الكثيرين، كان من أجمل ما رسمت، وقد ترشح في القائمة القصيرة لجائزة اتصالات الدولية لعام 2024. وكم شعرت

عن الكتابة في زمن الإبادة

سمانا السمرائي- العراق



أبرز ذكريات طفولتي ارتبطت بالحرب: استيقاظي وسط زجاج النافذة المتحطم فوق مكان نومي، تنقلنا من مكان إلى آخر في ليلة وضحاها لأن حياتنا، بسبب بعض المناشير، تعود مستحيلة في منطقة ما، الكثير من الرعب من ألا يعود أحد من أفراد أسرتي كلما خرجت هواتفهم من التغطية ولم نستطع الوصول إليهم، والكثير من الشهداء الذين فقدناهم بالفعل.

ومع تجربتي اللصيقة هذه مع آلام الحرب، غزة ألم آخر، ونزف مستمر، وقهر لكل معاني الإنسانية، لم يأت له مثل فيما قيده لنا التاريخ الحديث، ولم يحدث في كل التاريخ أن سمع الناس ووعوا بكل هذا القدر من الألم، ثم أشاحوا ببصرهم كما في هذه المرة، وهذا ما لم أفهمه، ولا أجد له تفسيراً.

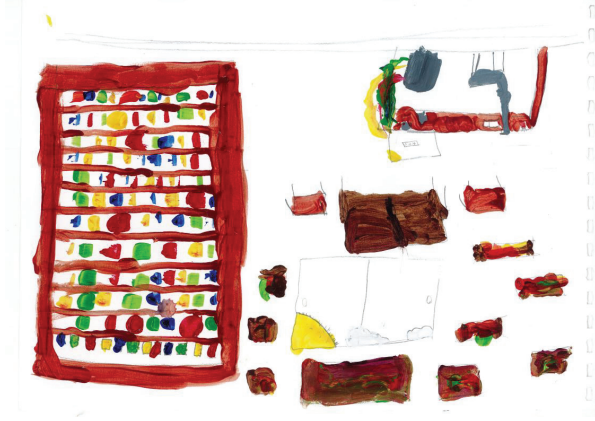
المبدع كائن حساس، كثير الانغماس في حوادث وخطوب الدهر، سابر أغوارها، مفصل أحوالها، لا فضلاً منه أو اختياراً، ولكنها هي طبيعته الشفافة التي تأخذ لون المحيط ورائحته ونغماته. هذا ما أعرفه، وهذا ما جعلني قادرة فقط على إنتاج نصوص مستوحاة من غزة طيلة أشهر الحرب الطويلة، فلم أستطع أن أتكلم عن ألوان السعادة وضروب المتع، وأعلم علم اليقين أن هناك من يموت جوعاً وعطشاً وحرماً وحبساً وتهجيراً وتكليلاً. لم يتوافق الأمر معي ككتابة أولاً، وكإنسانة ثانياً، لم أمتلك القدرة.

تأكيداً ويقيناً أن كل ما يحدث هو لخير في نهاية المطاف، وأن عوض الله سيأتي ولو كان متأخراً. فقدت نفسي وفقدت كل شيء في بيتي الذي أصبح ركاماً مع مرسمي. كنت أمتلك كنزاً كبيراً من آلاف الأوراق المرسومة يدوياً، والتي أفقدها كثيراً كل يوم. لا زلت أواجه وقتاً صعباً في ممارسة الفن مرة أخرى، ولكنني أحاول بكل قوتي.

أسأل الله كل صباح ومساءً أن تعود إليّ براء.. براء الطفلة... الرسامة... لا أريد أن أكون بطلة مرة أخرى، أريد فقط أن أعيش كإنسانة طبيعية كما يفعل الجميع في هذا الكوكب، بلا موت، بكثير كثير من الحب... من الجمال... من الأمل.

عن الكتب، والحب والنجاة

هناء أسامة أحمد



كانت تحمل الكتاب بين يديها غير مصدقة أنها ستقرأ واحداً في هذه الحرب، ظلت تقلب في وجهي الكتاب، تتأكد من اسمه، أو أنه بالفعل سيكون معها. جاءت ابتسامتها واسعة، عملاقة، أظنها لم تبتسم هكذا منذ عام ربما. أخذت تدور حول نفسها وتشير بأصابعها إلى بعض العبارات التي كانت تعرفها من قبل، وكنت طيلة ذلك المشهد أفكر في الكثير من الأشياء: من أي تعطش يأتي هذا الفرح بكتاب؟ ينبثق من بين الخيام، وفي مخيمات النزوح، وبين وجوه النازحين، يذكرهم بشيء ما.

وقفتُ بينهن أقسم أيام الكتاب، يومان لكل واحدة، حتى مع اعتراضات البعض أن يومين لا يكفيان لقراءة «رجال في الشمس». بأي شيء أستطيع وصف هذا الموقف من بين مواقف عديدة أراها وأحاول مراكمتها خلف ظهري، وإقناع نفسي أنها لا تعني شيئاً، وأنه مجرد تصرف بديهي لفتاة يافعة كانت تحب القراءة في أوقات فراغها، واليوم لم يعد هناك فراغ ولا كتب. لماذا القراءة؟ لماذا يجد الإنسان في هذا الفعل نوعاً من العزاء بطريقة ما؟ عن ماذا تلهينا القراءة؟ وكيف أن كتاباً واحداً صار محل نقاش بين فتيات أعمارهن بين الـ15 والـ16 عاماً؟ هل القراءة فعل اضطرار؟ هل نظهر باهتين وبلا أمل حين لا نقرأ؟ هل في القراءة إرجاع لذكريات مضيئة سابقة؟ هل تمنحنا تلك الكلمات التي كتبها آخرون لا نعرفهم الكثير من العزوات؟

هناك الكثير من التساؤلات المعلولة التي ظلت معلقة في الهواء، وأحسّ بهشاشة مفاجئة كلما فكرتُ فيها. أردتُ أن أقصيتها لأتحرر من ألمها وقيودها. كانت الكتابة عن تلك الأسئلة الشيء الوحيد الذي يحاول تفسيرها،

إن أقل ما أستطيع تقديمه بضع كلمات، كلمات أعلم أنها لن تكون درعاً لطفل، ولن تُثبت له يداً أو ذراعاً، ولن تعوضه حزن والديه أو دفء غرفته، ولن تحمي أي ذكرى من ذكرياته السيئة، لكنني، وككاتبة، أردتُ أن أصرخ، أن أستمر بالصراخ لعل أحدهم يستيقظ، لكي لا يتغير التاريخ، ولكي لا ننسى هذا الألم، تقديراً منا وشكراً وعرفاناً لكل تلك الطفولة المطفأة، والأحلام التي دفنها الركام ووأدتها صواريخ العدو.

ثم، ربما هناك طفل عركته الحرب في مكان ما يقرأ شيئاً من نصوصي فتسمح على قلبه، وآخر في جوف غرفته في ليلة دامسة، وفي عصر من العصور، وبينما هو يقرأ، يستطيع تطوير تعاطف مع أطفال مثله تماماً، نابضين بكل معاني الحياة، ولكنهم لم يقدرُوا على عيشها، لأن هناك من قرر سلبها، وهم لا ذنب لهم ولا جريرة.

تجربة الكتابة في زمن الإبادة قاسية، مؤلمة، حادة، ومحطمة، ولكنها نبيلة ومطهرة، أما الصمت فخزيه ثقيل، يسلب من الكاتب إبداعه، ويجعله قوقعة مجردة من المعنى، فيعود هباءً متطايراً لا كيان ثابتاً له، فهو لم يقم بدوره ك مترجم لمشاعر أمته، ومثقف قادر على تحريك القلوب والأفكار، وإنسان حر مدافع عن الإنسانية.

أنا أتألم باستمرار، حتى لحظة كتابة هذه الكلمات، إنني أعاني، يكاد الألم يطحن عظامي لشدته، وقد أسقطني صريعة للمرض في المستشفى مرات عدة، لكننا نكتب، ونستمر بالكتابة. هذا فعل المقاومة الذي أعرفه وأجيدُه وأستطيع فعله، والذي أجده ضئيلاً أمام حجم الموقف، ولكنني لا أستحقه. أواصل لكي لا أجنّ، أواصل لكي أكون إنساناً.

أن صوت الحرب أقل حدة، وفي الأوقات المرعبة التي كانت الصواريخ تنهال على رؤوسنا مثل المطر، كنت أعود إلى الكتب.

قبل الحرب، عملتُ في مكتبة مدة عامين، كانت الكتب هي الشيء الوحيد الذي أعرفه وأحب الحديث عنه، الشيء الذي يمنح الأشياء معناها بالنسبة لي. فكرتُ في تلك المكتبة كثيراً، ماذا تفعل الكتب الآن؟ وهل تعرف أنها جزء من هذه الحرب؟

في البداية، حاولت استيعاب حقيقة ما يحدث، وتقبل التغيير الهائل الذي طرأ على حياتي عنوةً. كنتُ أريد أن أعود للمكتبة، أقف أمامها وأتمنى لو أن لي يدين واسعتين مثل مدى تحملان كل هذه الكتب، وأخذها معي إلى البيت. تمنيتُ أن يظل ترتيبها كما وضعت على الأرفف، ألا أنسى تصنيفاتها، وألا أفضل يوماً في العثور على الكتب.

كان هناك فراغٌ مخيف، وتساؤلات تعلن عن نفسها، تصدر ضجيجاً عالياً كدتُ أجن لولا اللحظة التي مددتُ فيها يدي لرف الكتب المعلق في زاوية غرفتي، أتفحص العناوين الموجودة عندي. تذكرتُ كيف جاء كل كتاب منها، قلبتُ بعضها. ترددتُ في البداية إذ ليس هذا الوقت هو وقت القراءة، والمخيم الذي أعيش فيه مهددٌ بالنزوح، لكن عندها عرفتُ أنني سأقرأ «ظل الريح» أخيراً. هذا الكتاب الذي هربتُ منه لسنوات، وكنتُ أسمع عنه. قرأتُ عن كارلوس زافون كثيراً، كيف أن لغته تشبه الشعر.

لا زلتُ أذكر تلك الأيام الأولى حين كنتُ أستيقظ صباحاً، أحمل بين يدي «ظل الريح»، وأجلس في حاكورة البيت أسفل عريشة العنب مرة، ولجانب شجرة الجوافة وأقرأ، وأغرق بين صفحات ذلك الكتاب، فيما طائرات الاستطلاع تدوي فوق رأسي، تجعلني أستسلم لدوامة من المشاعر المبهمة. لم أكن أعرفُ ما إن كنتُ بخير بشكل حقيقي، أو أن القراءة وسيلتي في الهرب، وقد كنتُ أهرب. لطالما كانت القراءة طريقي في الهروب من الأيام الصعبة والأحداث الجلييلة التي تعصف بحياتي.

الكتب، الكتب، الكتب.. الآن باستطاعتي أن أوجه حديثي إليها. من دونك لم أكن لأعرف القصص، وكنتُ سأتوقف في مكان ما وأفقد القدرة على المواصلة. ربما كنتُ ولا أزال متشككة في الكثير من الأشياء، متشككة حتى في النجاة والأمل والحب، لكن شيئاً واحداً متأكدة من عمقه وأثره: الكتب. وهذه مسألة إيمان.

ولا تزال شيئاً أفعله حين لا يستطيع التخفيف عني أي شيء، فأذهبُ لأكتب. أغيب في الحروف والكلمات، أقضي ساعات طويلةً أنهار وأبكي مثل المحمومين. الكتابة عندي تخرج من روحي، لذلك تكون صعبة، ويكون مخاضها طويلاً. في أحيانٍ كثيرة في هذه الحرب، لم أعرف كيف يمكن كتابة «منشور» على صفحتي في فيسبوك، لم أعرف كيف أصف جرحاً كبيراً ينزف، ولا يزال ينزف. لم أعرف كيف أقول إنني عدتُ إلى البيت، وأنني، وفي أثناء كتابتي لهذا النص، أقرأ أمر إخلاء جديد للمخيم. كيف أكتبُ أنني سأنزع للمرة الرابعة، وتحمل الكلمات ما في هذه الجملة الخبرية من ألم واضح وكبير؟ لم يكن هنالك وقتٌ للكتابة، كنتُ أعيش هذه الأحداث المتسارعة فقط، أحاول النجاة، لا ألبث أن أتتفلس حتى يأتي حدث جديد يسيطر على كل فكرة داخل رأسي. كيف أكتبُ مثلاً عن عودتي إلى البيت، في حين أنني أبحث عن أخي محمد في الجثث المجهولة، وأحاول أن أجيب على تساؤل الجميع: أين ذهب؟ وكيف حدث هذا؟

كيف أكتب عن كلمة أحبك في زمن الحرب؟ أحبك مثلما تحبين البيت، أحبك وستعودين إليه. عن ماذا يكتب العشاق في غزة؟ وكيف لم يكتب أحدٌ عن الحبيبات اللواتي يتمزقن بين الغضب والحب والنزوح؟ كيف صار الحب مادة مترفة لا يكتب عنها، ولا يعرف أحدٌ ماذا تعني «أحبك» لامرأة نازحة تمشي، كما لو أنها ستظل تمشي إلى الأبد، بقدمين متعبتين لا تعرفان إلا طريق العودة إلى البيت، ويقلب يسقط إلى الهاوية؟ كيف يكتب الصغار في الحرب؟ كيف ندق الجدران على طريقة أولاد المخيمات؟ ماذا تقول المدينة لأبنائها بعد عام؟ كلها عناوين محتملة لنصوص أتحمسها، مثلما أتحمس جلدي، وأرزح تحت ثقلها، لم أكتب منها كلمة بعد. تلك النصوص أحلمُ بها، أحكيها في رأسي، كلماتها موجودة في أعماقي وتهزني، لكنني لا أكتبها! أحداثٌ متسارعة تجعلني أفقد الكلمات في خضم الحياة الصعبة والمشوشة التي أعيشها. كيف أكتب عن هناء؟ وما الشيء المهم قوله في هذا الجنون؟

أذكر أنني أرسلتُ لأحد أصدقائي أخبره أنني لا أعرف ماذا أفعل. الحرب تحاول ابتلاعي، تلاحقني في نومي، تأكلني شيئاً فشيئاً، وأنا أستسلم أمام هذه المدينة. قال لي: اكتبي، الكتابة هي مقاومة، شيء مجد، وربما هي محاولة تفسير لعدم الفهم الكبير الذي نعيش فيه طويلاً. لكنني لم أكتب، ما يكتبه الآخرون كان هو ملاذي. جربتُ الاختباء في الكتب، جربتُ أن أحتمي بها، كانت تشعرنني

الباب الثاني



أدب البقاء
عن كتب الأطفال التي تقاوم

طائرات ورقية في سماء فلسطين: اللعب والمقاومة في أدب الأطفال الفلسطيني

لؤي وتد



عليها. إن تحليق طائرة ورقية في هذا الأدب يصبح شكلاً من أشكال المقاومة التفكيكية، حيث يستعيد الأطفال السماء للحظات، وهي المساحة التي تظل بمنأى عن قيود الاحتلال. سواء كانت الشخصيات تطلق طائرات ورقية فوق قطاع غزة، أو تستخدمها لترمز إلى التضامن في المهرجانات الدولية، أو تلونها بألوان العلم الفلسطيني، فإن صور الطائرات الورقية يتردد صداها كرمز قوي للأمل والقوة في عالم ضيق.

تتعمق هذه الدراسة في المعاني المختلفة وراء تمثيل الطائرات الورقية في أدب الأطفال الفلسطيني، وتستكشف كيف تعكس هذه الرموز موضوعات أوسع تتعلق بالحرية والقومية والهوية. من خلال دراسة الأعمال الأدبية وكتب الأطفال المصوّرة، مثل «إيمان والطائرة الورقية» لديمة سحويل، و«الطائرة» لذكريا محمد، و«في فضاء واحد» لمريم حمد، يكشف هذا المقال كيف تحوّلت الطائرة الورقية لتصبح رمزاً للمرونة الثقافية والتحدى الفكري لواقعية القمع في الحيز الفلسطيني. الطائرات الورقية، في هذا السياق، ليست مجرد أدوات للتسلية ولكنها منفذاً للتمكين، كونها تسمح للأطفال بتجاوز الحدود الجغرافية والسياسية التي تحدد حياتهم اليومية.

لفهم الأهمية الكاملة لهذه التمثيلات، تستخدم هذه المقالة الإطار النظري لـ Homo Ludens (الإنسان اللعوب)، الذي قدمه المؤرخ الثقافي يوهان هويزينجا¹. تؤكد نظرية هويزينجا على الدور الأساسي للعب في الثقافة الإنسانية وقدرته على خلق حقائق بديلة من خلال الخيال وحرية الحركة. وبهذا المعنى، فإن الطائرات الورقية في أدب الأطفال الفلسطيني تمثل تحدياً مرحاً ضد هياكل الاحتلال الصارمة. من خلال تحليق الطائرات الورقية، يؤكد الأطفال الفلسطينيون في الأدب على شكل من أشكال القوة التي تتحدى الحواجز المادية والاجتماعية والسياسية المفروضة عليهم. يسمح هذا الإطار بفهم أعمق لكيفية تضافر اللعب والخيال وأعمال المقاومة الرمزية.

الطيران في أدب الأطفال الفلسطيني

أحد المواضيع الأكثر إلحاحاً التي تبرز من دراسة أدب الأطفال الفلسطيني هو موضوع الطيران والتحليق كوسيلة

تلعب الطائرات الورقية دوراً هاماً ومتعدد الأوجه في أدب الأطفال الفلسطيني، حيث ترمز إلى أكثر من مجرد أداة تسلية ومرح. في سياق يحتله صراع سياسي استعماري واحتلال وحواجز مادية مثل الجدران ونقاط التفتيش، تعمل الطائرات الورقية بمثابة استعارات ومجازيات قوية للحرية والمقاومة والأمل في تجاوز القمع. ينسج المؤلفون الفلسطينيون هذه الرموز بمهارة في قصص وروايات تعكس الحقائق القاسية التي يواجهها الأطفال الذين ينشؤون تحت الاحتلال، بينما يقدمون أيضاً مهرباً خيالياً من هذه القيود. من خلال الطائرات الورقية، توضح هذه القصص التوق للتحرر من القيود الجسدية والنفسية التي تفرضها القوى الاستعمارية والعسكرية.

في لب أدب الأطفال الفلسطيني يتبلور موضوع الخلاص والهروب، الحقيقي والمجازي. في العديد من كتب الأطفال الفلسطينية، يتم تصوير الطائرات الورقية كأدوات تسمح للأطفال بتحدى الهياكل القمعية المحيطة بهم، والتحليق فوق الجدران والحدود التي تبدو لولا ذلك غير قابلة للتغلب

1 Huizinga, J. (1955). Homo Ludens: A Study of the Play-Element in Culture (R. F. C. Hull, Trans.). Beacon Press. (Original work published 1938)

وطيران آخر لا بد من ذكره، هو ذلك الظاهر في الفولكلور الأفرو-أمريكي والأفرو-كاريبي حيث تأتي الأسطورة الفولكلورية «الأفارقة الطائرون»² لتمثل رمزاً قوياً للمقاومة والتحرر في الأدب. الأسطورة مستلهمة من قصة تاريخية لشعب الإيجبو عام 1803، الذين قفزوا من سفينة العبيد ولقوا حتفهم في المحيط، وعن تضحياتهم تروي الأسطورة أنهم قفزوا من السفينة وتمكنوا من التحرر عبر الطيران السحري للعودة إلى إفريقيا. ينظر إلى الطيران في هذا السياق كمجاز للتحرر من قيود الاستعمار والعبودية، ورمزاً للتغلب على الحدود الأرضية والثقافية المفروضة على الأفارقة. بتأويلها من منظور ما بعد استعماري، تصبح هذه الأسطورة أداة تعبير عن القوة الإنسانية والتحدي للمرويات الكولونيالية. وقد استلهم العديد من الأدباء، مثل توني موريسون³ وكي ميلر⁴، هذا الرمز ليعبروا عن مفاهيم التحرر والتمرد في أعمالهم الأدبية.

أما عن الطائرات الورقية في أدب الأطفال العالمي، فهي تلعب دوراً رمزياً متنوعاً وفقاً للسياق الثقافي والسردية الذي تظهر فيه. مثلاً، في الأدب الذي يتناول التحرر من القيود المجتمعية أو الجسدية، تلعب الطائرة الورقية دوراً في منح الحرية ولو الحرية الذهنية للأطفال اللذين يعانون من إعاقة جسدية، مثل كتاب «King for a Day» من تأليف رخسانة خان⁵، حيث يشارك طفل يُدعى مليك، وهو مقيد بكرسي عجلات، في مسابقة في حيه في الباكستان، ويتمكن من أن يصبح «ملكاً ليوم واحد» بفضل براعته في تحليق الطائرات الورقية. من جهة أخرى، في الأدب الصيني والتايواني، على سبيل المثال، تمثل الطائرات الورقية التراث والتقاليد العائلية والارتباط بالقيم الثقافية القديمة، كما يظهر في كتاب «Kite Flying» من تأليف غريس لين⁶، حيث يتحول إعداد الطائرة الورقية وإطلاقها إلى نشاط عائلي يجسد التعاون والاتصال بين الأجيال. بالإضافة إلى هذين السياقين، التيمة المتكررة والأبرز في ذكر الطائرات الورقية، هي التيمة السياسية للتحرر وتجاوز الحدود - في «Red Kite' Blue Kite» من تأليف

رمزية لتجاوز الحدود المادية. وفي حين أن التحليق فوق جدار الفصل العنصري هو المثال الأكثر وضوحاً وملموساً ضمن هذا الأدب، إلا أنه ليس المثال الوحيد لتمثيلات الطيران. تقدم الأدبيات في كثير من الأحيان تمثيلات مختلفة للأسوار والجدران والحواجز والحدود، حيث يصبح الطيران آلية تخريبية لتحدي هذه القيود المفروضة. يُعتبر الطيران وتخطي الحدود والجدران بأشكاله المتعددة، بمثابة الوسيلة الأساسية التي يواجه بها الأطفال الفلسطينيون حقائق الاحتلال المعقدة. هذه الحقائق متعددة الأوجه، وغالباً ما تكون مأساوية، ومتأصلة بعمق في التجارب اليومية للطفولة الفلسطينية. على الرغم من أن معالجة جميع جوانب هذا الموضوع في نطاق محدود يمثل تحدياً، فمن الواضح أن تخطي الحدود بمثابة أداة سردية حاسمة يتم من خلالها استكشاف قضايا أوسع تتعلق بالحبس والمقاومة. وفي حين أن كل حالة من حالات الطيران فريدة من نوعها، إلا أنها جزء من شبكة أكبر ضمن أدب الأطفال الفلسطيني، حيث تتقاطع رموز التحرر والتحدي وتؤثر على بعضها البعض.

تعكس فكرة الطيران المتكررة في أدب الأطفال الفلسطيني أيضاً استعارة أوسع للحرية والتحدي في مواجهة القمع السياسي والاجتماعي، مما يوفر للقراء الصغار طريقة لتصور حقائق بديلة وخيال سياسي نقدي. لقد كان الطيران والتحليق في السماء من مواضيع اهتمام الإنسان منذ فجر التاريخ وبيدات الأدب. يمكن رؤية هذا الاهتمام بالطيران وآثاره في الأساطير والنصوص الدينية القديمة وأدب العصور الوسطى. ترمز الشخصيات الأسطورية مثل هيرميس وإيكاروس، المجهّزة بالأجنحة، إلى رغبة البشرية في تجاوز القيود الأرضية. كان لدى العديد من الآلهة في ثقافات مختلفة القدرة على الطيران، متوارثة في شخصياتهم: أودين في الأساطير الإسكندنافية، وجارودا في البوذية، وهورس في المعتقد المصري القديم. وحتى في الديانات اللاحقة مثل المسيحية والإسلام، تم تصوير البراق والملائكة وسكان الجنة بأجنحة ترمز إلى طبيعتهم المتسامية.

2 McDaniel, L. (1990). The flying Africans: extent and strength of the myth in the Americas. *New West Indian Guide/Nieuwe West-Indische Gids*, 64(1.40-28, (2-

3 Morrison, T. (1977). *Song of Solomon*. New York: Alfred A. Knopf.

4 Miller, K. (2016). *Augustown*. London: Weidenfeld & Nicolson.

5 Khan, R. (2014). *King for a Day*. Illustrated by Christiane Krömer. New York: Lee & Low Books.

6 Lin, G. (2002). *Kite Flying*. New York: Alfred A. Knopf.

سياق المقاومة الفلسطينية. يعد المهرجان، الذي يتضمن فعلاً جماعياً المتمثل في تحليق الطائرات الورقية، بمثابة هروب مؤقت من ظروف الحياة القمعية تحت الحصار، ويمثل كناية عن التوق إلى الحرية.

إيمان تصنع طائراتها الورقية الخاصة، ومن خلال طيرانها البسيط والعميق، تعلق فوق قطاع غزة. تمثل رحلتها فوق المنطقة عبوراً من الواقع المرير والمقيد إلى عالم الأحلام والإمكانيات، حيث لم تعد الحواجز المادية تحدها. تصور الرسوم التوضيحية المصاحبة للنص بوضوح واقع الحصار، حيث تطوق الدبابات والسفن الحربية والجدران غزة من جميع الاتجاهات. تعزز هذه العناصر البصرية أجواء الحبس والقيود المفروضة على الغزي، مع رغبة الطفل في التحرر على خلفية العسكرية والاستعمار. ومع ذلك، فإن تحليق الطائرة الورقية يسمح لإيمان بتجاوز هذه الحواجز للحظات، مما يشير إلى أنه حتى في خضم الاحتلال والحصار، لا تزال هناك مساحة للخيال والتحدي.

لا تسلط هذه القصة الضوء على دور الطائرات الورقية كأدوات للتحرر الجسدي والنفسي فحسب، بل تضعها أيضاً ضمن السياق الأوسع للمقاومة الثقافية الفلسطينية. تصبح الطائرة الورقية، في هذه الحالة، أكثر من مجرد لعبة - فهي ترمز إلى إمكانية الحركة والحرية والتحليق فوق المشهد العسكري الذي يميز حدود غزة. من خلال هذه القصة، توضح سحويل قدرة أدب الأطفال على التعامل مع مواضيع سياسية عميقة، مما يوفر للقراء الصغار وسيلة لتصور بدائل للواقع المقيد للاحتلال.

وكما تبرهن لنا «إيمان والطائرة الورقية» فإن أهمية الطائرات الورقية في غزة تمتد إلى ما هو أبعد من دورها كأداة مرح وتسلية؛ بل قد تطورت لتصبح رمزاً قوية للمقاومة والأمل، وهي متأصلة بعمق في المشهد الاجتماعي والسياسي. مهرجان غزة للطائرات الورقية، «هو اليوم الوحيد الذي تصبح السماء فيه ملكاً للأطفال»، كما تذكرنا سحويل. هذا المهرجان قد اكتسب شهرة دولية، وعرض التقاطع القوي بين اللعب والنشاط السياسي بمفهومه الأعمق. تم إنشاء المهرجان كاستجابة مناهضة للحصار المستمر والتحديات الشديدة التي يواجهها الأطفال في غزة، ويوفر المهرجان لحظة نادرة من الفرح الجماعي والتضامن والوحدة وسط الواقع المرير للحياة تحت الحصار. بالنسبة للأطفال المشاركين، فإن مجرد

جي-لي جيانغ⁷، تمثل الطائرة الورقية رابطاً بين طفل وأبيه اللذان يفتقران بسبب الاضطرابات السياسية في الصين، حيث تصبح الطائرة الورقية رمزاً للأمل والصمود في وجه الظروف الصعبة. ومثال آخر على ذلك نجده في أدب الأطفال الألماني المتعلق بجدار برلين، مثلاً في كتاب⁸ «Das Wende-Bilderbuch»، حيث تظهر الطائرة الورقية كرمز لتجاوز الحدود والأمل في التحرر من فوق جدار برلين، مما يجسد الرغبة في التحليق فوق الحواجز المادية والسياسية والاتصال مجدداً. وبهذا، تمثل الطائرة الورقية حركة دائمة بين السعي للحرية والتغلب على تحديات الواقع.

تركز هذه المناقشة على تقييد حرية حركة الأطفال، وهي فكرة نجد تمثيلها الأقوى، كما ذكرت، في جدار الفصل العنصري، سواء كبنية حرفية أو مجازي. إن الجدار، الذي يفرض التجزئة الاستعمارية داخل المجتمع الفلسطيني، يظهر بشكل متكرر في أدب الأطفال، حيث يشكل عائقاً مركزياً يجب على الشخصيات مواجهته. في هذا الأدب، يسمح الطيران والتحليق للأبطال بجعل الجدار منفذاً، مما يؤدي إلى طمس الحدود الصارمة بين المناطق المختلفة. غالباً ما تسهل المخلوقات الأسطورية مثل التنانين والخيول المجنحة والجنيات هذه الرحلات، وتعمل كوسيلة مشروعة لعبور الجدار. ومع ذلك، فإن تخطي الحدود لا يقتصر على عالم الأسطورة. في العديد من القصص، تلعب الطائرات الورقية دوراً مركزياً، حيث تقدم وسيلة بديلة ورمزية للغاية لعبور هذه الحواجز.

الطائرة الورقية في سماء غزة

في قصة ديمة سحويل «إيمان والطائرة الورقية» (2008)⁹، تدور أحداث السرد في قطاع غزة، وهي منطقة محددة رمزياً وجسدياً بالحصار والعزلة. القصة، التي نُشرت بعد عام واحد فقط من بداية حصار غزة، تتبع البطلة، فتاة صغيرة تدعى إيمان، تحلم بتجاوز الواقع القاسي لوجودها المحاصر. محور القصة يبدأ في مهرجان غزة للطائرات الورقية، وهو حدث يحمل ثقلاً ثقافياً وسياسياً كبيراً في

7 Jiang, J. L. (2013). Red Kite, Blue Kite. Illustrated by Greg Ruth. New York: Disney-Hyperion.

8 Grundmann, H., & Vogt, S. (2009). Das Wende-Bilderbuch: Die Geschichte von Janosch aus West-Berlin/Die Geschichte von Anni aus Ost-Berlin. Münster: Coppenrath Verlag.

9 سحويل، د. (2008). إيمان والطائرة الورقية. رسومات: ديمة أبو الحاج. رام الله: مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي.

من القواعد الجديدة، التي تبدو معزولة عن العالم الخارجي، ولكنها في الوقت نفسه تعكسه بطرق جديدة ومليئة بالتحديات. بالنسبة لهويزينجا، تعتبر اللعبة وسيلة لإعادة تشكيل الواقع، واستكشاف الاحتمالات الأخرى، وتجربة الشعور بالحرية ضمن حدود واضحة.

في هذا السياق، فإن إطلاق الطائرات الورقية في القصة ليس مجرد لعبة أطفال، بل هو فعل يخلق مساحة متخيلة يمكن للمرء، ولإيمان بشكل خاص، من خلالها تجاوز الجدران المادية وحواجز الواقع السياسي. تصبح الطائرات الورقية أداة تسمح للأطفال بإنشاء «مساحة للعب» تختلف فيها القواعد: فبدلاً من أن تخضع لقوات الاحتلال والجدران، فإنها تحلق فوقها. إن اللعب بالطائرات الورقية يخلق للأطفال مساحة مؤقتة من الحرية، حيث لا تنطبق في إطارها أيم من القوانين السياسية. وهذا المعنى يجعل من الطائرات الورقية أداة قوية، تتيح للأطفال التعامل مع قيود الحصار والاحتلال، ليس فقط على المستوى الجسدي، بل على المستوى الذهني أيضاً، من خلال الخيال واللعب. تسمح عملية الطيران التخيلي هذه بمساعدة الطائرات الورقية للأطفال بتجربة شعور مؤقت بالحرية، وبالتالي تصبح اللعبة أداة للمقاومة النفسية والسياسية. إن القدرة على اللعب والقفز خارج الجدران تجعل اللعبة وسيلة للتعامل مع القيود المادية المفروضة على سكان غزة.

ليس معنى الطائرات الورقية في القصة مجرد طريقة للعب في واقع متخيل؛ وهو بمثابة شكل من أشكال التحدي ضد السلطة التي تحاول السيطرة على حركة الأطفال. تؤكد نظرية هويزينجا على أن اللعبة، في بعض الحالات، هي عمل من أعمال المقاومة والاحتجاج والتخريب. في غزة، وفي أدب الأطفال الفلسطيني عموماً، تمثل الطائرات الورقية الرغبة في الحرية والقدرة على كسر القيود من خلال عمل بسيط يبدو بريئاً ظاهرياً، ولكنه في الواقع يحتوي على رسالة عميقة للمقاومة والشوق إلى الحرية.

إن اختيار الطائرات الورقية عوضاً عن ألعاب أخرى ليس من قبيل الصدفة. هناك ما يميز الطائرة الورقية ويمنحها قيمة رمزية عميقة بشكل خاص في الأدب الفلسطيني. أولاً، الطائرة الورقية هي في الأصل لعبة طيران وتحليق، ولذلك فهي تعكس الرغبة في التحرر من الحدود المادية والقيود الجغرافية، مما يجعلها رمزاً مثالياً للأطفال الذين يعيشون تحت الاحتلال والقيود الشديدة على الحركة. في

تحليق طائرة ورقية يصبح تأكيداً متحدياً لوجودهم وقدرتهم على الصمود والوصول إلى السماء - التحرر، مجازياً، وهي لفظة رمزية لتوقهم إلى الحرية والتواصل خارج الجدران التي تحيط بهم.

ومن الأمثلة البارزة بشكل خاص على هذا المهرجان ما حدث في 28 يوليو 2011، عندما نظمت وكالة الأمم المتحدة لإغاثة وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين (الأونروا) حدثاً ضخماً لتحليق الطائرات الورقية على شاطئ بحر بيت لاهيا قرب منطقة الواحة في غزة. وفي ذلك اليوم، تم إطلاق 12350 طائرة ورقية في آن واحد، مسجلة رقماً قياسياً جديداً في موسوعة غينيس¹⁰. لم يُظهر هذا الحدث حجم المهرجان وأهميته فحسب، بل سلط الضوء أيضاً على الاعتراف الدولي بالطائرات الورقية كرمز للمرونة الثقافية والمقاومة السياسية عامة وفلسطينياً خاصة. في مواجهة الحصار والقمع المستمرين، جسدت عملية إطلاق آلاف الطائرات الورقية معاً رسالة قوية من التحدي والأمل والتضامن الجماعي، مما يوضح كيف يمكن حتى للأنشطة التي تبدو بسيطة أن تحمل أهمية سياسية وعاطفية عميقة في سياق الحياة الفلسطينية والمقاومة.

يجسد هذا المهرجان، والطائرات الورقية التي يتم إطلاقها خلاله، الوظيفة المزدوجة للعب والاحتجاج في أدب الأطفال الفلسطينيين وممارساتهم الثقافية. الطائرات الورقية، في حين أنها توفر ملاذاً مؤقتاً للأطفال، فهي أيضاً بمثابة شكل من أشكال المقاومة الرمزية ضد القوى القمعية التي تهيمن على حياتهم.

اللعبة كنشاط سياسي

لسبر غور منطقية الاحتجاج كما يتبلور في تحليق الطائرات الورقية علينا فهم جوهر اللعب كمفهوم احتجاج ثقافي سياسي. يدعي يوهان هويزينجا (Johan Huizinga) في كتابه أن Homo Ludens (الإنسان اللّعب)، أن اللعب هو ظاهرة إنسانية عالمية، سبقت تطور الثقافة نفسها. اللعب، ليس مجرد نشاط للترفيه أو المتعة، ولكنه عمل أساسي في الحياة الاجتماعية، من خلاله يخلق الناس مساحات بديلة تمكنه من التحرر من قيود الواقع اليومي. خلال اللعب، يدخل المشاركون في دوامة سحرية مغلقة

10 Guinness World Records. (2011). Most kites flown simultaneously. Retrieved from <https://www.guinnessworldrecords.com/world-records/most-kites-flown-simultaneously>.

الغرفة وفي البئر - تجده الطائرة دائماً، مجسداً التهديد المنتشر في كل مكان بالعنف والسيطرة الذي يحدد حياته اليومية. يقرر أمجد أن يصنع طائرة ورقية ويطيّر بها فوق الطائرة الحربية. إن عملية تحليق الطائرة الورقية، كما هو موضح في الرسوم التوضيحية للكتاب، تصبح استعارة قوية للتغلب على الخوف واستعادة الشعور بالقوة. من خلال التحليق فوق الطائرة الحربية، يرتفع أمجد رمزياً فوق القوى التي تسعى إلى تقييده، مؤكداً حريته النفسية في مواجهة القمع. في هذا النص نجد العالم مقسوم إلى عدة عوالم متخيّلة تتغير فيها القوانين بناءً على مخيِّلة أمجد. هناك الواقع الذي فيها تحوم الطائرات الحربية في سماء المدينة، وهناك عالم الكابوس الذي يمثل عالم بانوبتيكوني (Panopticonic)¹² نموذجي لعالم يشعر فيه أمجد بأنه محاصر ومراقب في كل مكان يلجأ إليه، وأخيراً هناك عالم اللعب، الحيز أو المساحة التي يخلقها أمجد في مخيِّلته. في العالم الثالث هذا، يتمكن أمجد من التغلب على كافة قوانين الواقع والكابوس والاحتلال - حيث تقوم فيه طائرة ورقية تحمل ألوان علم فلسطين بالتغلب والتحليق فوق طائرة حربية.

تمثيل آخر مهم للطائرات الورقية يظهر في كتاب «في فضاء واحد» (2008)¹³ لمريم حمد وانصاف الحاج ياسين. تتمحور هذه القصة حول طفلين فلسطينيين، يفصلهما جدار الفصل العنصري، ويستخدمان الطائرات الورقية للحفاظ على التواصل عبر الحاجز. فالجدار، وهو مظهر مادي للتشردم، لا يقسم الأرض فحسب، بل يقسم المجتمعات والأسر أيضاً. ومع ذلك، من خلال تحليق الطائرات الورقية، يستطيع الأطفال تجاوز هذا الحاجز المحسوس، وخلق ما يشير إليه العنوان بـ«فضاء واحد» يوحدهم فوق الجدار. التسامي فوق الجدار بهذا المفهوم، هو لب المقاومة من خلال اللعب. تمثل القصة انتصاراً مجازياً على الحدود المفروضة، حيث تعمل الطائرات الورقية كجسور بين المناطق المنفصلة، مما يتحدى ديمومة الجدار وصلابته. يتماشى هذا التصوير مع التركيز الموضوعي الأوسع لهذا البحث، والذي يسعى إلى فهم كيف يقدم أدب الأطفال الفلسطيني، من خلال

حين ألعاب أخرى قد تتضمن عناصر خيالية أو متخيّلة، إلا أن الطائرة الورقية تقدم تجربة ملموسة للانفصال عن الأرض، وكسر قيود الجاذبية أولاً لاقتحام الحيزات التي يتعذر الوصول إليها - إنها لعبة تسعى بطبيعتها إلى عبور الخط الفاصل بين محدودية الانسان ولانهائي الحرية. بالإضافة إلى ذلك، تتطلب الطائرة الورقية مساحة مادية معينة - سماء مفتوحة ومساحة واسعة، وهي عناصر يحرم منها الأطفال الفلسطينيون نتيجة الحصار والقيود المادية. بهذه الطريقة، تصبح الطائرة الورقية عملاً من أعمال التحرر والتحدى: فهي تذكر الأطفال (والقراء) بأنه لا تزال هناك إمكانية لمواجهة هذه القيود، حتى لو من خلال وسائل رمزية مثل تحليق الطائرة الورقية. إن استخدام الطائرة الورقية في الأدب الفلسطيني يسمح للأطفال بكسر حدود الواقع بقوة خيالهم، ولكن في الوقت نفسه يختبرون أيضاً إحساساً ملموساً بالحرية، ولو بشكل مؤقت، من خلال الإقلاع في السماء. أمر آخر يميز الطائرة الورقية عن ألعاب أخرى هو قدرتها على أن تكون أداة للعب الفردي والجماعي في نفس الوقت. فالطائرة الورقية تسمح لطفل واحد أو مجموعة باللعب معاً، وبهذه الطريقة تصبح رمزاً للحرية الجماعية والأمل المشترك، وهو ما يميز تجربة الطائرات الورقية في فعاليات مثل مهرجان غزة للطائرات الورقية.

طائرات ورقية مقاومة

موضوع الطائرات الورقية وأهميتها الرمزية في أدب الأطفال الفلسطيني يواصل إلى ما هو أبعد من قصة «إيمان والطائرة الورقية»، ليجد طريقه إلى العديد من الأعمال الأخرى التي تستكشف تقاطع اللعب والمقاومة والوطنية. أحد الأمثلة على ذلك هو كتاب «الطائرة» لذكريا محمد وبيشار الحروب (2003)¹¹، والذي يوضح الصدمة النفسية التي يتعرض لها الطفل الفلسطيني في ظل الاحتلال من خلال شخصية أمجد. بعد أن شاهد طائرة أباتشي تقصف منزلاً بالقرب من منزله، يواجه أمجد كابوساً متكرراً حيث تلاحقه الطائرة بلا هوادة. على الرغم من محاولاته للاختباء - وراء الجدار، وفي

12 Foucault, M. (1977). Discipline and Punish: The Birth of the Prison (A. Sheridan, Trans.). Pantheon Books. (Original work published 1975)

13 حمد، م. (2008). في فضاء واحد. رسومات: انصاف الحاج ياسين. حيفا: مكتبة كل شيء.

11 محمد، ز. (2003). الطائرة. رسومات: بشار الحروب. رام الله: مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي.

أطلقتها مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي لعام 2024، حيث تظهر الطائرات الورقية بشكل بارز في ملصقات الحملة. وتستخدم الحملة، التي تحتضن غزة باعتبارها «ابنة البحر والبرتقال»، الطائرات الورقية كرمز للصمود والأمل، مما يعزز فكرة أنه حتى في أصعب الظروف، يواصل الأطفال إيجاد طرق للارتقاء فوق حدودهم. وفي مقولة لناصر رباح، المدرجة في ملصق الحملة، يقول بشكل مؤثر: «ذهب سدى صوت الطائرات، بادل الأطفال بطائراتهم الورقية، في غد تلعو فيه البيوت بأطفالها». مما يشكل تناقضاً مباشراً بين عنف الطائرات الحربية والتحدي السلمي المقاوم الذي ترمز إليه الطائرات الورقية. بالإضافة إلى ذلك، فإن الكتاب الذي صدر كذلك عام 2024 «مليون طائرة ورقية» (A Million Kites)¹⁴، والذي يجمع شهادات وقصائد من أطفال غزة، يسلط الضوء أيضاً على الصدى الثقافي العميق للطائرات الورقية كرمز للتحرر والأمل تحت تهديد التوحش المستمر ضد الطفل الفلسطيني والغزي بشكل خاص.

لا تقتصر صورة الطائرة الورقية على الأدب والحمولات الفلسطينية، بل تجاوزت أيضاً الوعي الدولي الذي ربطها بنفسه بالسياق الفلسطيني. ظهرت الطائرات الورقية في الشعارات والمواد الترويجية لمختلف المهرجانات والفعاليات المتعلقة بالقضية الفلسطينية، بما في ذلك مهرجان مونتريال الفلسطيني (Montréal Palestine Festival)، ومهرجان فلسطين تكتب الأدبي (Palestine Writes National Students for Justice in)، ومهرجان الفيليم الفلسطيني الخامس في باريس (Festival Ciné-Palestine 5ème Edition). تؤكد هذه المظاهر الواسعة النطاق كيف تطورت الطائرات الورقية، في السياق الفلسطيني، إلى تمثيل قوي لحرية الحركة، وتحدي الحدود المفروضة، والتطلع الذي لا ينضب إلى التحرر. لقد تجاوزت استعارة الطائرة الورقية عالم الأدب، ودخلت في النسيج السياسي والثقافي للمجتمع الفلسطيني وتمثيلاته العالمية.

عند دراسة دور وتمثيل الطائرات الورقية في أدب الأطفال الفلسطيني وخارجه، يصبح من الواضح أن هذه الأشياء البسيطة تحمل ثقلاً رمزياً عميقاً. إنها لا تمثل مصدرًا

فكرة الطائرات الورقية، رؤية للوحدة والاستمرارية في مشهد محدد بالتشردم والاحتلال.

في كلا المثالين، لا تعمل الطائرة الورقية كرمز للتحرر الشخصي فحسب، بل أيضاً كتمثيل للهوية الوطنية. في «الطائرة»، تحمل الطائرة الورقية التي يطيرها أمجد ألوان العلم الفلسطيني. تعزز هذه الصور فكرة أنه حتى في لحظات اللعب، يمكن أن يكون لتخليق طائرة ورقية أهمية ومقولة سياسية عميقة. فالطائرة الورقية، في هذا السياق، ليست مجرد أداة مقاومة للخوف الشخصي، ولكنها أيضاً رمز للشعور بالانتماء الوطني والتحدي ضد قوى الاحتلال. وبالمثل، في كتاب «في فضاء واحد»، تحمل الطائرات الورقية التي يطلقها الأطفال أيضاً ألوان العلم الفلسطيني، مما يؤكد بشكل أكبر على العلاقة بين الطيران والوطنية والمقاومة. إن قيام الأطفال بتطير الطائرات الورقية يصبح تأكيداً جماعياً للهوية التي تتجاوز الحدود المادية والسياسية الساعية إلى تقسيمهم.

تسلط هذه القصص الضوء على موضوعين متكررين في أدب الأطفال الفلسطيني: الحاجة للتحرر والتعبير عن القومية. تعتبر الطائرات الورقية بمثابة رموز مركزية في كلا الموضوعين، حيث تمثل إمكانية الطيران كوسيلة للتغلب على الحدود الجسدية والنفسية والوطنية التي يفرضها الاحتلال. وبينما ترتفع الطائرة الورقية فوق الجدران والطائرات الحربية، فإنها تعكس رؤية أوسع لأدب الأطفال الفلسطيني كمجال موحد يستخدم فكرة الطيران لتجاوز الانقسام والقمع. تؤكد الصورة المتكررة للعلم الفلسطيني على الطائرات الورقية على العلاقة بين الحرية الشخصية والهوية الوطنية الجماعية، مما يوضح كيف يصبح اللعب البسيط بياناً قوياً للمقاومة. من خلال هذه القصص، يقدم المؤلفون الفلسطينيون للقراء الصغار هروباً مجازياً وحرفياً من قيود واقعهم، مما يمكنهم من الشعور بالقوة والأمل في مستقبل بلا جدران وحدود.

طائرات ورقية في سياقات أخرى

تمتد الأهمية الرمزية للطائرات الورقية في السياق الفلسطيني إلى خارج حدود الأدب، حيث تظهر في مجموعة متنوعة من الحيزات الاجتماعية والثقافية والسياسية. ومن الأمثلة البارزة على ذلك حملة القراءة الوطنية التي

14 Boukarim, L., & Luzon, A. (Eds.). (2024). A million kites: Testimonies and poems from the children of Gaza. Self-published.

هذا نور

أمل كرزاي

كنتُ أرسُمُ فقاعات قهوتي أثناء قراءتي لإيميل من مؤسسة تامر يقترح بأن يركز الكتاب الجديد على الخيال. شعرتُ بالراحة، بالرغم من أنني أفضل رسم الأطفال على أي شيء آخر لم أقوى على فعل ذلك فقلبي كان مثقلًا بالحزن. كأن رسم الأطفال في هذه المرحلة هو بمثابة خيانة للذين فقدناهم الآن. هذا لا يبدو منطقيًا، أي طفل سيقول كذلك لكنه ما شعرت به.



(رسم قهوة الصباح)

أذكر أن من أول الصور التي رأيتها على الانستغرام في أكتوبر 2023، كانت صورة لفتى صغير نازح من شمال غزة إلى جنوبها وهو يحتضن قطته الكبيرة، وكلما رأيت صوراً أكثر كلما رأيت أطفالاً يحملون قططهم. لم أكن أدرك كم أن هذا الأمر شائع في غزة. يا ترى ما الذي تفكر فيه القطة وسط كل هذا الدمار والفوضى: يا للظلم! يا له من شيء مريب! وكم هو خاطئ!

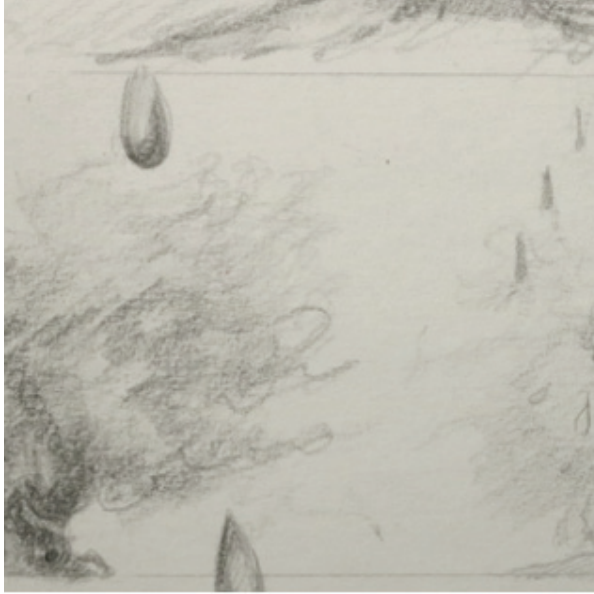
ربما تلك الأفكار هي أفكار تراود البشر لوحدهم، ربما لا تكثر القطة لكل هذا طالما يوجد هناك من يحملها، وربما لا.

في نفس الفترة تقريبا، كنت أرسُم لوحةً كبيرةً لعبود بطاح؛ الصحفي الشاب، صانع العصير من غزة الذي ترك انطبعا قويا في جميع أنحاء العالم وهو جالس على أريكة ضخمة باتت الآن رمزا، وبالقرب من أسفل الأنقاض كنت قد رسّمت شكلاً صغيراً يشبه القطة.

للعب والفرح للأطفال فحسب، بل تمثل أيضاً تحدياً قوياً للحدود الجسدية والنفسية التي يفرضها الاحتلال وتوحّشه. سواء تم استخدامها لتجاوز الجدران في القصص، أو تجسيد الوطن من خلال حمل ألوان علمه، أو الظهور كرموز للتضامن في المهرجانات الدولية، فإن الطائرات الورقية تعمل كأدوات لمقاومة ومناهضة القمع. إنها تسمح للأطفال والمجتمعات بتخيل عالم تكون فيه حرية الحركة والتحرر من الحدود ممكنة.

إن تمثيل الطائرات الورقية في سياقات مختلفة - أدبية وثقافية وسياسية - يسلط الضوء على أهميتها باعتبارها أكثر من مجرد ألعاب. وفي أيدي الأطفال الفلسطينيين، تصبح أدوات للمقاومة، ورموزاً للأمل، ومركبات لاستعادة الفضاء. يعكس إطلاق الطائرة الورقية طموحاً دائماً للحرية يتجاوز الحقائق المادية لنقاط التفشيش والجدران والحصار. وكما رأينا خلال هذا الاستكشاف، فإن الطائرات الورقية، من خلال قدرتها على الارتفاع فوق الحواجز المادية، تقدم شكلاً فريداً من أشكال القوة والتمكين في سياق تكون فيه هذه الإمكانيات محدودة في كثير من الأحيان. وهكذا، تظل الطائرة الورقية رمزاً دائماً للصمود والرغبة التي لا تنضب في التحرر داخل الثقافة الفلسطينية.

لذلك، تحوّلت أسئلة القطة إلى تجمّع لطائر الفينيق ومخلوقات خيالية تتعافى أرض الخراب بتخليقهم في سماءها. حيثما ذهبوا تزهر الأرض وتخضر.

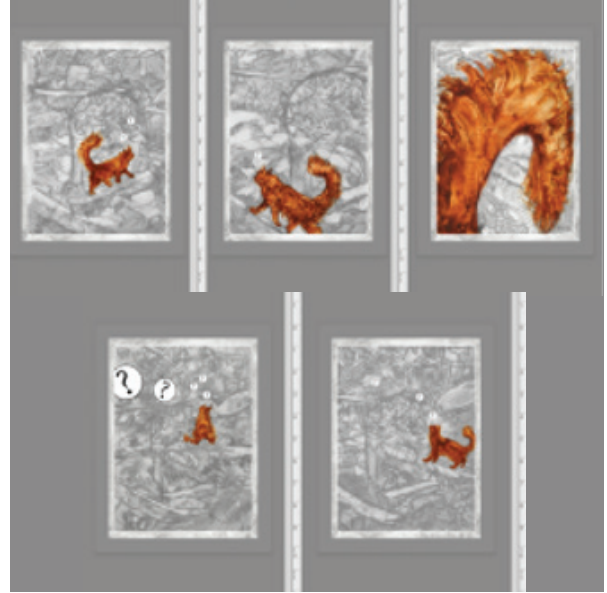


(رسمة لتحديد حجم قطرات المطر)

تعود الأشجار وتزهر الأزهار وتمنح الطبيعة الأمان لجيلٍ آخر من القطط

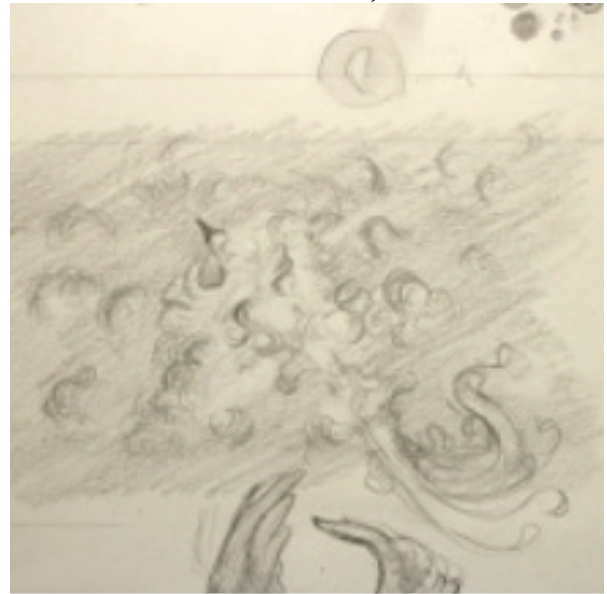


وقمت بإعادة رسم الأريكة، ثم رسمت القطة خارج الركاب وجعلتها الراوي. في الصفحات الخمس الأولى، سألت: ماذا؟ ماذا يحدث؟ أين الجميع؟ مرحباً؟ لا، حقاً، مرحباً؟ لكن سماع كلمات القطة الخيالية كان محزناً أيضاً. لذا قمتُ بتحويل الأسئلة إلى علامات استفهام فقط.



(هنا، كنت لا أزال أقرر أين أضع علامات الاستفهام)

طوال عملية صنع «نور» لم تتحسن الأخبار بتاتاً ومع ذلك كان الأطفال وقططهم دائماً بجانب بعضهم البعض، وشيءٍ أعظم من الأمل كسحرٍ لا يمكننا ترجمته استمر بالظهور.



(رسومات أولية لكائن خيالي في صدد أن يتشكل.)

كتاب الأطفال «نور» المقاومة والأمل في العودة

د. لينا مرهج



هذه مراجعة لكتاب «نور»، الذي كتبه ورسمته وصمّمته أمل، ونشرته مؤسسة تامر عام 2024 في رام الله، فلسطين.

«الكتاب مبني على قصيدة.» هذا ما يخبرنا به النص في نهاية الكتاب. القصيدة تحمل عنوان «مع الأرض»، وكتبها راشد حسين (1936-1977)، الشاعر المؤثر الذي كتب عنه محمود درويش، وغنّت كلماته المغنية الفلسطينية ريم كيلاني، ووصفتها بأنها «تحرر من إحساسنا بالحصار الجماعي والشخصي».

يبدأ الكتاب بإهداء: «إلى أحمد مناصرة العزيز وكل أطفال فلسطين، ستزهر الأرض بأسمائكم». أحمد مناصرة أسير لدى الاحتلال منذ كان في الرابعة عشرة من عمره. في يونيو 2022، واجه مشاكل نفسية خطيرة بعد أن قضى سبع سنوات في السجون الإسرائيلية. قالت هبة مرايف من منظمة العفو الدولية: «إن أحمد مناصرة واحد من عدد لا يُحصى من الفلسطينيين الذين هُضمّت حقوقهم كأطفال في النظام القضائي الإسرائيلي المليء بالنواقص، ويجب إطلاق سراحه.»

تهدي أمل الكتاب لطفل فقد طفولته في سجون الاحتلال، وفقد الأشجار والسماء الزرقاء والأرض الطرية تحت قدميه وهو يركض. العنوان «نور» يحمل معنى الضوء

وأيضاً الرؤية لما هو أبعد أو باطني. الكتاب مغامرة بمعناها الواسع، لأنه يبدأ بالصمت ثم يصيح قصيدة. القصة ليست مباشرة، بل متابعة لحيوانات في مناظر طبيعية مختلفة، وشعور بالطبيعة وبالأرض بطريقة خاصة جداً. الكتاب يربطنا بالأرض وبمحبتنا لها.

الغلاف مفعم بأوراق الشجر الخضراء المورقة، مما يبعث إحساساً بالحيوية والتجدد. في تناقض واضح، يظهر الجزء الخلفي بدرجات اللون الرمادي، مما يشبه خراباً. كلا الجانبين يحملان كلمة «نور» بأحرف صفراء زاهية وجميلة-تطفو بحرية فوق الأخضر الزاهي على الغلاف، وداخل فقاعة قد تكون ترميها فوق رمادية الخراب في الخلف. يعكس هذا التباين موضوعات الأمل والصمود وسط الدمار.

ما يميز هذا الكتاب أن الصور لا تعكس النص مباشرة، بل تضيف إليه. الكتابة والرسومات تتداخل لتشكل سردين مختلفين. على صفحة تحمل جملة «فأشرب منها وتشرب مني»، نرى بستاناً ممطراً وقطاً مختبئاً فيه. ومع ذلك، فإن السردين متكاملان وبلتقيان ليخبرانا بأن ما يشربه الراوي من هذه الأرض هو المطر. هذا التلاعب السردية، الذي يسمى «التجديل»، يدعو القارئ إلى الإبداع لملء الفراغات وفهم القصة التي تظل مفتوحة النهايات. فلا يوجد هيكل حقيقي للقصة بمقدمة وخاتمة واضحة.

من خلال الصور، نتبع قطعة تبدأ من مكان يشبه الأنقاض. تملأ الصفحات علامات استفهام، تتغير لاحقاً إلى فقاعات. طائر، أو ربما طائر الفينيق، يطير عبر الأراضي والسهول ويتحول إلى مطر يسقي بستاناً. تظهر القطعة في الطبيعة الخصبة، وسط تربة غنية وخضرة زاهية. «الأرض» بأحرف كبيرة هي أول الكلمات التي نقرأها. في النص، يتكلم الراوي بصيغة المتكلم ويروي قصته مع الأرض، التي ترويه هي أيضاً وتترك عنده الحجارة رمزاً للمقاومة. «أرى الأرض صبغاً سيأتي»، فالأمل في العودة واضح.

كل شيء محاط بإطار رمادي شبه شفاف، كما لو كان لتذكيرنا بأن هذه قصة تم تأطيرها وتركيزها لإظهار شيء محدد: قطعة، أنقاض، طائر، مروج، شجرة، مطر، بستان. يمنح الإطار الرمادي الكتاب طابعاً تقنياً، يتناقض مع ملمس اللوحة وضربات الفرشاة التي تجعل الألوان غنية جداً.

الأسئلة تتبع من الروح- كتاب «نور»

سامح عبوشي

من أين تتبع الأسئلة!!

هل تتبع من العقل؟

هل تتبع من القلب؟

في قصة «نور» الصادرة عن مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي، التي قامت الفنانة آمال بتخيل فكرتها، ورسمها وتصميمها، فإن الأسئلة تتبع من الروح، روحٌ فقدت توأم روحها الطفل أحمد، فدارت نور تبحث عنه...

تطالعنا في الصفحة الأولى علاقة سؤال كبيرة داخل الدائرة، وعلاقة ثانية على وشك دخول الصفحة من أسفلها، كأنها تحثنا على أن نقلب الصفحة، لنتفاجأ بالقطعة «نور»، بفروتها التي استعادت لونها من نور الشمس، وثلاث أسئلة تطير كالفقاعات في فضاء الصفحة.

تتجول نور في الصفحة المقابلة بين ركام المباني، وتزداد أسئلتها إلى أربع، ونواصل قلب الصفحات، فإذا بـ«نور» تقف وتتلفت حولها، والأسئلة تزداد في كل صفحة...

نشعر مع القطعة «نور» بالوحدة والضياع، ونشاهدها بأعينها دمار الأبنية، وركام الأثاث الذي تناثر حطاماً وغطى الصفحة بلون رمادي، لون غبار الانفجارات الهائلة التي سمعتها... تقف أمام إحدى الكنبات، تتعرف عليها، على هذه الكنبه كان يجلس عليها «عبود»!! تقفز عليها كما تقفز الأسئلة من روحها، أين ذهب عبود؟ أين ذهب الناس؟ أين اختفى أحمد؟

أحمد الذي كان يضمها إلى صدره، يلعب معها، يُحضر لها الطعام والماء، ثم يحملها بين يديه ويأخذها في نزهة بين أشجار الزيتون والبرتقال، أو قرب شاطئ البحر حيث كان يسكن مع والده. كان أحمد يحكي لها حكايات يسمعها من أبيه الصياد عن بلاد بعيدة يمتد نحوها هذا البحر... يقول لها أحمد إنه سوف يأخذها معه عندما يعودوا إلى تلك البلاد.

ومع الذكريات تحولت الأسئلة إلى أمل، إلى حلم، وشعرت نور بأن شيئاً ما يتحول فوقها، شيء عجيب، إذ صارت الأسئلة تتحول إلى فقاعات أخذت لون فروتها البرتقالي، وصارت تكبر وتكبر في الفضاء، وسمعت أصواتاً غريبة، إذ أخذت الفقاعات تتجمع في السماء، وتأخذ شكلاً ساحراً،

تتناول مواضيع الكتاب عناصر أيقونية للمقاومة الفلسطينية مثل الأرض وطائر الفينيق والحجر، لكنها تتطرق أيضاً إلى مواضيع جديدة، مثل القطعة، مما يجعلها فريدة ومنعشة. أليست القطة أبطال الإنترنت؟

منذ الغلاف، الرسالة الرئيسية للكتاب تدور حول المقاومة والأمل في العودة، ولكن ذلك غير مباشر وغامض. تظل قصة هذا الكتاب في عوالم القصص القابلة للتأويل، مما يجعلها مدخلاً مناسباً جداً للأطفال إلى الأدب الشعري. ما يبرز حقاً هو التلاعب بين النص والصورة، والتدفق الرائع الذي يأخذنا فيه الكتاب. ربما أضاف الإطار شيئاً قاسياً يذكرني باستمرار بحدود الواقع، لكن الأثر الفني والعاطفي بقي قوياً للغاية وتردد داخلي بشكل عميق.

يعزز الكتاب فكرة المقاومة والأمل في العودة بتلاعب سردي فريد. التجديد بين النص والصور، والغنى الفني للرسومات، يرفع الكتاب إلى مستوى فني عالٍ. أوصي بشدة بقراءة هذا الكتاب مع أطفالكم، وتأمل الصور، وغناء القصيدة معاً. كما أوصي بقراءة القصيدة الكاملة لراشد حسين الموجودة في النهاية. مثل اكتشاف الكتاب، ستدفي هذه التجربة قلوب أطفالكم وتقويها.

أدب البقاء ومازق القارئ «يوميات أصيل والأطفال الخمسة» كنموذج

ميس داغر

كما يُقال، هناك كتب تُقرأ وهناك كتب تُعاش، ويوميات «أصيل والأطفال الخمسة» للمؤلفة أصيل عبد السلام سلامة تنتمي إلى الكتب التي تُعاش، فتُوجع وتفجع وتكسر وترمم روح القارئ في كل جملة منها. فهي ليست مجرد تأريخ لأحداث ماضية، بل إنها مواكبة حيّة لفضائع في حرب مُعاشة لم تنته بعد، مكتوبة بأنفاس متقطعة ويدين مرتعشتين، وعينان تحاولان أن تجدا في عالم الأطفال سلوى لها وملجأ.

عندما يكون الأدب في مواجهة مباشرة مع المآسي الكبرى، سواء كانت حروباً، إبادة جماعية، أو كوارث إنسانية، فإنه يواجه تحدياً جوهرياً: كيف يمكن للغة أن تنقل حجم الفاجعة؟ في مثل هذه الحالات، لا يعود الأدب مجرد شكل فني قائم على الخيال أو الرمزية، بل يصبح وسيلة لنقل تجربة إنسانية حقيقية. هنا يظهر ما يُسمى بـ «أدب البقاء»، حيث لا تكون الكتابة خياراً فنياً أو ترفاً فكرياً، إنما ضرورة وجودية، بوصفها الطريقة الوحيدة لمقاومة النسيان وتوثيق اللحظة في مواجهة الفناء.

في هذا السياق، يتخلى الأدب عن التجريدات الفلسفية أو الحبكة الأدبية المصطنعة، إذ لا يعود هدف الكاتب هو بناء عالم متخيل، بل تقديم الواقع كما هو، بقسوته المطلقة، كأنه «حقيقة لا جدال فيها». الكاتب في هذه الحالة لا يسعى إلى إعادة ترتيب الأحداث وفق رؤية جمالية، بل يحاول أن ينقل للقارئ إحساس العيش في قلب المأساة، حيث تصبح الكتابة فعلاً من أفعال البقاء، وسلاحاً وحيداً في وجه الخراب.

بهذه الطريقة نفهم كيف تشكل الحالة الوجودية المفتقدة لأي ترفٍ مادي أو فكري خلال الحرب دافعاً محرّكاً لتدوين اليوميات، كما فعلت أصيل سلامة في يومياتها. هنا، لا تحاول أصيل خلق «حبكة» متقنة أو تقديم تأملات فلسفية حول الحرب، بل تكتب ببساطة عن تفاصيل الحياة اليومية التي تتحول إلى كفاح يومي من أجل البقاء: إعادة استكشاف الطرق البدائية لإعداد الخبز، إعداد «شيبس الحرب» من المعرونة، الاعتياد على الوقوف لساعات في الطابور من أجل استلام علبة فاصولياء، إيجاد فرشاة إسفنجية للنوم في بيت مكتظ بالنازحين، التفكير بأنسب الطرق لإبلاغ أطفال باستشهاد والدتهم، ابتكار طرق لإضاءة خيمة تلد فيها امرأة من غير أن يتسلل الضوء إلى خارج الخيمة فتتصفها الطائرة الحربية الإسرائيلية. محاولة

حتى صارت الفقاعات طائرًا جميلاً.. طائر ضخم لم ترَ نور مثله من قبل، كانت أجنحته تشبه اللهب الذهبي، وعيناه تلمعان كالنجوم... حينها لمعت عينا نور باستغراب، كسؤال طفل خجول، فأجابها الطائر بصوت كالرعد:

أنا طائر الأسئلة، جئت لأجيب عن كل ما يدور في خاطرك... فأنت تبحثن عن أحمد الذي ارتقى إلى مكان جميل، حيث لا خوف ولا ألم، وهو ما زال يحبك...

ويشاق إليك.. ها أنا أحمل أسئلتك في مكان دافئ بين جناحي، مع دعوات كل الأطفال والأمهات، وكل الكائنات التي فقدت أحبائها...

ثم فتح الطائر جناحيه، فتبدد اللون الرمادي، وكأن الشمس أشرقت من جديد، وحلق عاليًا ثم انخفض نحو الأرض المملوءة بالركام، وجاء صوته مخاطباً نور: «أنا ابن هذه الأرض، سأحول الأحلام والدعوات إلى قطرات مطر مليئة بالحب والأمل.. أنظري، أنظري...»

بدأ المطر يتساقط، وتحول إلى برك وأنهار صغيرة، كان مطراً مختلفاً، كل قطرة تحمل ذكرى، صورة، ضحكة، أو حلمًا لطفل رحل، وحيثما لامس المطر الأرض، نبتت أزهار جديدة، وبراعم خضراء، ورويداً رويداً تحولت الأرض إلى بساتين، تنمو فيها أشجار برتقال، وليمون، ونخيل...

تطلعت نور إلى الطائر بعيون مبتسمة، ونظرت حولها، فرأت الركام يتحول إلى تلال خضراء، وبساتين واسعة، وعادت الطيور تغني بين الأشجار، ورأت نور قططاً صغيرة تلعب بأمان...

شعرت نور بالراحة والأمل، وسمعت صوت طائر الرعد يأتيها من بعيد: هذه الأرض ستشفى بفضل الحب الذي تركه أحمد وكل الأطفال، فهيا يا صديقتي، لك أن تكلمي الطريق مع جيل جديد من القطط...

حلق الطائر عاليًا وهو يغني:

تقترب الأرض مني..

وتشرب مني..

وتترك عندي بساتينها

وتترك عندي حجارة حب

تدافع عنها وعني

فأشرب منها

وتشرب مني

هنا يتحول الأدب إلى مسؤولية، ليس فقط بالنسبة للكاتب، بل للقارئ أيضاً. فالقارئ لا يستطيع أن يكون في موقع محايد، بل يجد نفسه مجبراً على مواجهة نفسه بعجزها عن المساعدة في إحداث فرقٍ لمن يعانون ويلات الإبادة. إذن، لا يخوض القارئ هنا «متعة القراءة»، بل يخوض معضلة أخلاقية مؤرقة: هل سيبقى متفرجاً، أم سيحاول التعامل مع عمق المأساة واتخاذ موقف؟

إنَّ البعد العاطفي الإنساني لأدب البقاء هو ما يجعله أقوى من أي تحليل سياسي أو تقرير صحفي، لأنه لا يكتفي بإخبار القارئ بما يحدث، بل يجعله يعيشه، يشعر به في أعماقه، ويتحول إلى جزء من هذه الشهادة الإنسانية التي لا يمكن تجاهلها.

يمكننا الآن فهم السبب وراء تحول بعض النصوص، مثل النص الذي بين يدينا، إلى شهادات لا تموت. عندما تكتب أصيل عن خوفها وخوف الأطفال حولها، فإنها لا توثق فقط لحظات من الرعب، بل ترسم صورة مفصلة لإنسانية تحاول أن تبقى على قيد الحياة رغم تقطع سبل النجاة.

إن هذه الكتابة، رغم بساطتها الظاهرة، هي مقاومة صامتة ضد الحرب، وضد تحويل المعاناة إلى أرقام باردة في الأخبار. إنها تذكير بأن وراء كل قصة حرب هناك أشخاص حقيقيون، بقلوب تنبض، وأحلام تتلاشى تحت القصف. وهكذا، يصبح أدب البقاء ليس مجرد وسيلة لنقل الألم فحسب، بل سلاحاً ضد النسيان.

الأطفال ومأزق إضافي للقارئ

تُبرز أصيل في يومياتها هذه مفارقة أن الأطفال هم أضعف ضحايا الحرب وفي الوقت نفسه أكثرهم تأثراً في نفوس من حولهم فرحاً أو حزنًا أو تمسكاً بأسباب الحياة. في هذه اليوميات، يصبح الأطفال عنصراً فاعلاً، يدفعون الكاتبة - دون قصد - إلى الاستمرار في التوثيق والنجاة، ولو بالكلمات.

تقول أصيل: «لولا وجود الأطفال في بيتنا لكانت الحرب أصعب بكثير». ثم تشكر الأطفال الخمسة: عمر، زين، دينا، إيناس وأمير. مؤكدة أنهم «زينة حياتها».

روت أصيل الكثير من يومياتها في الحرب من خلال تفاعل أطفال عائلتها معها. وهذا الشكل من الرواية غالباً ما يكون له تأثير حميمي في نفس القارئ لأنه يفضح بشاعة الاحتلال من خلال عفوية الأطفال المجردة من التبريرات السياسية، والتي تُجبر القارئ على إعادة التفكير في معاني إنسانية كونية.

لقد شكلت علاقة الكاتبة بأطفال عائلتها جداراً نفسياً يقيها الانهيار في الحرب. إذ حرصت على إظهار قدرة الأطفال

إتمام المهام المنزلية من غير كهرباء وغاز. محاولة النوم تحت الصوت المرعب للزنانات اللاتي يبحثن طوال الليل والنهار عن أهداف للقصف. محاولة .. محاولة .. محاولة ...

الكتابة من قلب الإبادة في غزة هي توثيق لمرحلة مظلمة من تاريخ الإنسانية. مرحلة أن يتحول الإنسان المقهور إلى الفقرة الرئيسية في سيرك ملعون، محاطاً بكائنات وحشية باردة تتلهى بمراقبته من المدرجات. كتابة مثل هذه ليست مجرد نص أدبي، بل هي وثيقة إنسانية تسجل مأساة بشرية في وقت وقوعها، مما يجعلها تتجاوز كونها مجرد تجربة فردية لتصبح جزءاً من الذاكرة الجمعية لقطاع من الأرض والبشر ابتلعت المأساة.

عندما تكون سمات أدب البقاء حاضرة في نصوص الحرب أو المآسي، فإنها تحمل تأثيراً مضاعفاً على القارئ. والسبب الأول لهذا التأثير هو غياب التصنع الأدبي؛ إذ لا يتم استخدام الاستعارات المعقدة أو الحيكات الدرامية المصطنعة، مما يجعل القارئ يشعر بأنه يواجه الحقيقة بشكل مباشر. لا توجد هنا محاولات لتجميل الواقع أو تقديمه في إطار رمزي، بل هناك نقل حيّ لتفاصيل يومية مأساوية تجعل القارئ شريكاً في التجربة.

أما السبب الثاني فهو الارتباط العاطفي الفوري، إذ إنَّ الكاتب في أدب البقاء لا «يحكي قصة»، بل يشارك تجربة، مما يجعل القارئ يتورط نفسياً في الحدث، ويشعر وكأنه داخل الحدث ذاته، وليس مجرد متفرج عليه. هذا النوع من السرد يحطم المسافة التقليدية بين الكاتب والقارئ، ويدفع الأخير إلى المشاركة الشعورية في الألم والمصير الغامض الذي تعيشه الشخصيات.

أما السبب الثالث، والأكثر رعباً، فهو غياب اليقين بشأن النهاية. في الأدب التقليدي، يتوقع القارئ دائماً نوعاً من الحل أو الخاتمة التي توضح مصير الشخصيات، لكن في أدب البقاء، لا نعرف المصير النهائي لأن الكاتب نفسه لا يعرفه. يولد غياب اليقين هذا توترًا عميقاً ويعكس حالة «المجهول» التي يعيشها الأشخاص في قلب الكارثة. وهكذا، يجد القارئ نفسه معلقاً في ذات القلق الذي تعيشه الشخصيات، حيث لا يمكنه توقع ماذا سيحدث بعد ذلك، تماماً كما هو الحال في الحروب الحقيقية.

عندما نقرأ نصوصاً مثل يوميات أصيل، أو كتابات أخرى عن الحروب والكوارث، نحن لا نقرأ لمجرد «الاستمتاع»، بل نواجه سؤالاً أخلاقياً جوهرياً: ماذا يعني أن نكون شهوداً على معاناة الآخرين؟

«لبن يتعلم التنفس»

جيهان أبو لاشين



تُعد قصة لبن يتعلم التنفس لسارة طاهر، ورسومات فانيسا مورينو، والصادر عن مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي عام 2023، من القصص الجيدة، فهي تجمع بين التسلية والمعنى في آن واحد. القصة مناسبة للأطفال في مختلف الأزمنة والأمكنة، إلا أن أهميتها تتضاعف في ظل الظروف الراهنة، خاصة مع ما يمر به الطفل الفلسطيني في غزة من قلق بسبب الحرب، أو الطفل الفلسطيني أينما كان، في ظل التصعيدات العسكرية المستمرة، والتوتر الذي يتعرض له نتيجة متابعة الأهل المستمرة لأخبار الحرب.

يحمل العنوان «لبن يتعلم التنفس» طابعاً غير مألوف ومثيراً للاهتمام، فهو عنوان غير متوقع لقصة أطفال، مما يجعله مشوقاً ويشير فضول القارئ الصغير، ليكتشف ما الذي يمكن أن يعنيه تعلم التنفس بالنسبة للبن..

تسلط القصة الضوء على أهمية التغلب على المخاوف والتعامل معها من خلال تمارين التنفس، وهي استراتيجية فعالة وسريعة الأثر في مواجهة القلق والتوتر. وتساعد الطفل كيفية مواجهة التحديات اليومية البسيطة بأسلوب عملي وسلس، يساعده على التكيف مع مشاعره وتطوير مهاراته الشخصية.

«لبن» القطّ

لبن (اختصاراً للبن رايب) هو بطل القصة، وقد نجحت الكاتبة في منحه صفات إنسانية تجعله قادراً على اختبار المشاعر والتفاعل مع الأحداث كما يفعل البشر. تميزت شخصية لبن

«السماوية» على إعادة تشكيل مشاعرها في الأوقات العصيبة، ومنحها شجاعة غير متوقعة، وتذكير بأنه ما زال في الحياة نفس وفسحة للمستقبل.

لكن دور الأطفال لا يقتصر على منح الكاتبة عزاء نفسياً، بل يتجاوز ذلك إلى كونهم محفزاً سردياً جوهرياً. فهم ليسوا مجرد شخصيات جانبية في هذه القصة، بل هم الدينامو العاطفي الذي يبقي السرد على قيد الحياة. إنهم قوة تدفع القارئ ليبقى في قلب النص، دون أن يسمح لنفسه بالخروج من تجربته بسلام، لأن وجودهم يجعل الحرب أمراً شخصياً، حتى لمن يقرأ عنها من بعيد.

أما ما يجعل هذه اليوميات أكثر إيلاً فهو أن القارئ، مهما كان متعاطفاً، لا يملك القدرة على تغيير مصير الأطفال داخل القصة. في الروايات الخيالية، يمكننا أن نأمل بنهاية مختلفة، بأن ينجو الأبطال، بأن تنقلب الأحداث لصالح الخير. لكن في نصوص الحرب الحقيقية، يعرف القارئ أن ما يقرأه ليس مجرد احتمالات، بل هو واقع حدث أو يحدث الآن. وهنا يكمن مأزق القارئ الأخلاقي: هل يواصل القراءة رغم معرفته بالعجز، أم يشيح بنظره هرباً من المواجهة؟

إنّ عرض الحرب من منظور الأطفال يعرّي الإبادة من مسميات السياسة، ويكشف حقيقتها من حيث كونها جريمة يومية ضد الحياة. فالطفل لا يرى «أطرافاً سياسية متنازعة»، بل يرى أنه نام على وسادة واستيقظ على أنقاض منزله. الطفل لا يفهم معنى «ضرب هدف في مرمى الطرف المقابل»، لكنه يفهم أن أخاه فقد ساقه، وأن والدته لم تعد تفتح الباب عند عودته من اللعب، وأنّ هنالك لحظة انقلب فيها عالمه بكل تفاصيله رأساً على عقب.

في هذه اليوميات، تصبح الطفولة مساحة مواجهة رمزية بين قوتين متناقضتين: قوة الحرب التي تُفني، وقوة الأطفال الذين، رغم ضعفهم الظاهري، يرفضون على السرد أن يواصل العيش، تماماً كما يرفضون على الكاتبة أن تواصل الكتابة.

في النهاية، يوميات «أصيل والأطفال الخمسة» ليست مجرد شهادة عن الحرب، بل هي شهادة عن هشاشة الإنسان أمام المأساة، وعن الرغبة في الحياة رغم عبثيتها الظاهرة. تضعنا هذه النصوص أمام مرآة تكشف عمق ضعفنا وعجزنا، لكنها في الوقت ذاته تذكّرنا بأن الحرب ليست مجرد مشاهد دمار، بل هي أيضاً تفاصيل صغيرة من الإنسانية التي تصرّ على البقاء.

واجهها خلال يومه، عبر تسلسل ممتع ومناسب للطفل. حيث تتطور الأحداث بطريقة مشوقة، حيث يواجه لبن مخاوفه، ويتعلم التعامل معها من خلال استراتيجية التنفس، كما يُشرك الطفل القارئ في هذه التجربة، مما يجعل القصة ذات بعد تفاعلي وتعليمي في الوقت ذاته. أما النهاية جاءت مريحة ومطمئنة للطفل، حيث يشعر القارئ بالإنجاز بعد أن يرى كيف تغلب لبن على مخاوفه.

في ظل ما يعيشه الطفل الفلسطيني - وخاصة في غزة - من تجارب قاسية ومخاوف متزايدة، تصبح هذه القصة أداة مساعدة مهمة. فالخطر الذي واجهه أطفال فلسطين بسبب الحرب والتحديات العسكرية المستمرة، جعلهم في حالة من القلق المستمر، في حين أن الأهل قد يكونون منشغلين في مواجهة تحديات الحياة، أو غير مدركين لاستراتيجيات التخفيف من القلق والتوتر عند أطفالهم.

تأتي قصة لبن لتقدم للطفل أداة ذاتية تمكنه من التعامل مع مخاوفه بنفسه، دون الحاجة إلى أدوات خارجية أو تدخل كبير من الآخرين، مما يجعلها وسيلة عملية وفعالة لمساعدته على الشعور بالأمان والراحة النفسية.

إنها ليست مجرد قصة تُقرأ، بل تجربة يعيشها الطفل، يخرج منها وهو أكثر قدرة على مواجهة مشاعره، وأكثر وعياً بأدوات التكيف مع القلق. لذا، فإنني أوصي بشدة بقراءتها للأطفال، سواء في أوقات الأزمات أو في الحياة اليومية، لأنها تمنحهم وسيلة فعالة لاحتضان مخاوفهم والتعامل معها بثقة وطمأنينة.

بالابتكار والاختلاف عن الشخصيات النمطية للقطب في قصص الأطفال، حيث تم التركيز على مخاوفه، مشاعره، وردود أفعاله، مما يجعل الطفل القارئ يشعر بالتواصل العاطفي معه. كذلك، اعتمدت الكاتبة على أسلوب المخاطب، حيث يتوجه لبن مباشرة إلى الطفل القارئ بطرح أسئلة تفاعلية، مما يعزز اندماجه مع القصة، ويجعله شخصية أساسية فيها. أما التين، النينجا، الشبح - وهي شخصيات خيالية تسهم في تحفيز مخيلة الطفل، وترتبط بفكرة المخاوف التي يواجهها لبن.

جاءت المفردات المستخدمة بسيطة وسهلة، ضمن القاموس اللغوي المناسب للطفل من عمر 8 سنوات فما فوق، مع استخدام بعض الكلمات التي تثير اهتمام الأطفال في سن الخيال المنطلق (6-12 عاماً)، مثل وحش وتين. بدأت الكاتبة القصة بسؤال: «هل ثمة أحد غيرنا هنا؟»، وهو أسلوب ذكي يشرك الطفل القارئ فوراً في القصة، مما يخلق جوّاً من التفاعل والمشاركة. كما يستمر لبن في طرح الأسئلة طوال الأحداث، مما يعزز التواصل العاطفي والذهني مع القصة.

مرّ لبن بتجارب يومية مألوفة يمكن لأي طفل أن يمر بها، ما يسهل على القارئ الصغير التوحد الانفعالي مع القصة، وكأنها تحكي عن تجربته الخاصة. ويفضل تطور الأحداث بأسلوب سلس ومترايط، تُساعد القصة الطفل على تعلم مراقبة مخاوفه، ومحاولة التعامل معها من خلال تقنية بسيطة لكنها فعالة جداً في تخفيف التوتر، وهي تمارين التنفس.

البناء السردى منطقي ومُحكّم، حيث بدأت الكاتبة بتقديم شخصية لبن، ثم انتقلت إلى عرض التحديات والمخاوف التي



عن أذرع البيت: شجرتنا رمزية الحضور والغياب

مجدل نتيل



ما هو البيت؟ هو المحاط بالأذرع، أذرع تحمي وتبني. الأذرع هي الأغصان، والبيت هو الشجرة العصية على الموت. تأتي على الشجرة مواسم، ويأتي على البيت مواسم أيضاً. يتسع البيت لحدود المدينة، ويزنقنا بالوطن دائماً، ويشير إلى كل بعيد لا يغييب. لا يتقلص مفهوم البيت أبداً، حتى لو عدنا إلى الخيمة. البيت ضرورة حياتية للعيش، كما الشجرة، للحماية، وإشارة إلى حتمية بقائنا. نعيش كلاجئين غائبين؛ غيابنا عن بيوتنا الأولى قسراً، وتغييب بيوتنا، رقيقة لجوئنا الطويل، عنا بالقنابل.

بيتنا الشجرة كتبتها أختي بيسان ورسمتها أنا، وهي قصة للأطفال أصدرتها مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي، وتحتمل في جوانب كثيرة منها رثاءً لمنزلنا الذي دُمّر بالكامل، ولأذرع التينة والزيتونة التي زرعها والدي، والتي امتدت من تحت الركام. المشهد كان يماثل مشهد الأطراف التي بترتها نفس القنابل، وخرجت هي من تحت ركام بيوتها أيضاً.

لم يكن سهلاً التعامل مع الرمزية الأدبية العالية للقصة وترجمتها بصرياً. أذرع البيت، أطراف وأغصان الشجرة، أذرع تحيط البيت، تحميه، تحمل زهر الرمان وحكاياتنا، تستقبل رائحة البحر، تمد نبضها للأشجار المجاورة، تخبئ العصفير الآتية من البلاد، أقوى من أن يسقطها الخريف.

أذرع البيت بُترت. أذرع البيت تجذرت، نمت أغصان أخرى، وحملت زهراً جديداً للرمان. الأذرع التي تحمل الشمس

كطبق ورقي طائر إلى سماءنا، الأذرع أجنحة فراشة تحمل المدينة فوق الغيمات. الأذرع ذاكرة جداتنا، تمتد الأذرع لتصبح جسراً للسماء نحو الحرية. الأذرع، أغصان الشجر وأطرافنا، هي الشخصية المركزية في القصة. وأتصور أن الكتابة، في ظل تأرجح الشخصية المركزية بين الحضور والحضور الخفي، لم تكن سهلة كذلك.

الكتابة والرسم على التوازي كانا يكشفان ويضغطان على محال الألم معنوياً، كون الألم الجمعي لنا لا يزال حاضراً، وكون المعنى في النص يفتح احتمالات تأويل كثيرة عن ألم آخر عمره زمنياً أكبر بكثير من عمر اللحظة.

كل شيء بالنسبة لي خرج من عنوان واحد، هو البيت. البيت على الغلاف هو بيتنا الحاضر والقائم، حتى لو تم تدميره. ثم تبدأ القصة البصرية، متعاملة مع النص على عدة اتجاهات:

الاتجاه الأول: الرحلة اللونية للقصة التي تتعامل مع أطياف مختلفة من ألوان البحر والنهر، في إشارة إلى العنوان الأوسع والأكثر للبيت. ينتقل اللون بأطيافه ليترجم الحالات العامة لتحويلات النص ولسير القصة. في رمزية اللون، هناك معضلة يمكن تسميتها عقدة لونية، تمثلت بتحويل لون الخريف الأخير مجازياً إلى الأسود، وليس إلى ألوانه المعتادة، كمجاز عن أن فصل الخريف هو الفصل الذي أتت فيه الآلة العسكرية على كل شيء، وتحول فيه المشهد إلى دخان.

ومن هنا، كان تأمل آخر في القصة، التي تحتضن فيها فصول السنة برمزية عالية. تبدأ الرمزية بحضور الربيع، الذي تبعه حضور الحكايات، عندما يكون البيت سمكة صغيرة، مجازاً أيضاً، لها قصتها في حوض ممتلئ بالأسمك. مرت على البيت فصول خريف كثيرة. حمت الأذرع المنزل حتى الخريف الأخير في القصة.

لكن حتمية مرور فصول السنة استدعت حضور الأمل بقدم الربيع من جديد: الأمل الذي استدعى أن تحتضن أغصان الأشجار حكاياتنا، والأمل الذي يتعامل مع الشمس كأنها بالون للأطفال، لها دورتها وموسميتها بالظهور أيضاً.

الاتجاه الثاني: التباين الموجود باستخدام تقنيتي رسم في القصة بين الواقعية والرمزية هو تباين مقصود. تظهر عناصر مختلفة من القصة بطريقة إيقاعية واقعية، خاصة الجدات والطائرات العسكرية. فقد تم إبراز العناصر الواقعية لأن الصراع مبني بصرياً على انتصار الذاكرة على الآلة العسكرية. حتى بالحضور، تتجه الطائرات إلى إطار الصفحة، إلى الخارج، وكأنها ستخرج من الإطار. لكن حضور الجدات والذاكرة أكثر استقراراً، والجلوس يطمن بالبقاء.

الباب الثالث



مسارات مبتورة

عن المكتبات، عن التجربة، عن الأطفال، وعن العمل معهم في
زمن الإبادة

وفي المنطقة الشمالية من غزة، دُمر مركز «بيت الفن» الذي كان يُعد منصة أساسية للفنانين المحليين والعالميين، حيث كان يستضيف ورش عمل فنية ويضم معارض دائمة للوحات ومجسمات تعكس التراث الفلسطيني. بالإضافة إلى ذلك، تم تدمير مكتبة بلدية غزة العامة، ومركز رشاد الشوا الثقافي، ومكتبة ديانا تماري صباغ، ومركز الثقافة والنور، ومركز القطان للطفل، ومكتبة بلدية خان يونس، ومكتبة بلدية رفح، ومكتبة جمعية الهلال الأحمر، ومكتبة جواهر في جامعة الأزهر، ومكتبة جمعية الشبان المسيحية، وغيرها من المكتبات التي لا يمكن حصرها إلا بعد انتهاء هذه المقتلة العظيمة بحق الإرادة والإنسان الفلسطيني.

هذا الدمار لم يقتصر على البنية التحتية فحسب، بل امتد ليشمل فقدان جزء كبير من التراث الثقافي والهوية الفلسطينية، مما يفرض تحديات كبيرة على جهود إعادة الإعمار والحفاظ على ما تبقى من هذا الإرث الغني.

المكتبات في نطاقات الفعل، بين مركبات اللحظة الراهنة وإرث الماضي

عملت مؤسسة تامر مع المكتبات المجتمعية لفترات طويلة من الزمن، ويرتبط هذا العمل طيلة هذه السنوات مع ذات الأجسام فعلاً يستدعي تأملاً فكرياً ومعرفياً وتعليمياً في خضم هذا المسار المشتبك والمركب في العلاقات، السياقات، الخلفيات والامتدادات السياسية والفكرية والأيديولوجية من جهة، بالإضافة إلى سيرورة الحدث التاريخي وما يرافقه من جملة متداخلة من التغيرات والمستجدات من جهة أخرى. ولهذا، فإن النظر إلى هذه التجربة هو في حقيقته نظر إلى رواية متواترة وممتدة ومتداخلة مع الذات الفلسطينية الحاضرة والمتخيلة والمتوارثة، الذات التي ورثت وتعاطت وتفاعلت مع الماضي والراهن، وهو في الوقت نفسه نظر إلى كل مكتبة كحالة مستقلة ومتفردة من جانب، وإلى حالات متقاطعة ومنسجمة في فواسم مشتركة من زاوية أخرى.

والتأمل في السياق الذي وجدت فيه مكتبة دار الحكمة في فترة الدولة العباسية، يقودنا إلى النظر في حالة الانفتاح والاختلاط والتجديد التي امتازت بها هذه الحقبة، نتيجة للالتساع الجغرافي وما رافقه من دخول للعنصر الفارسي والرومي والكردي إلى العنصر العربي الذي كان قبل ذلك مغلقاً على ذاته وملتبساً حولها على اعتبارها الذات الأكثر تمايزاً. يقول العقاد عن القرن الثالث الهجري: «وكانت

المكتبات في دائرة الفعل ومسارات البتر

محمد الزقزوق



المكتبات المجتمعية والعامة بعد عام من الإبادة

مرّ عامٌ على الحرب المدمرة التي استهدفت قطاع غزة، ولا تزال آثار الدمار تلقي بظلالها الثقيلة على الحياة بكليتها، لا سيما على المشهد الثقافي في القطاع. فقد تعرضت المكتبات والمراكز الثقافية لدمار واسع النطاق.

وفقاً لتقرير صادر عن وزارة الثقافة الفلسطينية، تم تدمير أكثر من 30 مكتبة ومركزاً ثقافياً خلال السنوات العشر الأخيرة، بما في ذلك مكتبات تاريخية كانت تضم مخطوطات وكتباً نادرة. من بين المؤسسات التي تضررت بشكل كبير مكتبة «غزة العامة»، التي أسست عام 1942، وكانت تُعد من أهم معالم المدينة الثقافية، حيث فقدت المكتبة آلاف الكتب التي لا يمكن تعويضها، بعضها يعود لأكثر من مئة عام.

كما شمل الدمار مكتبة «الشروق» الواقعة في حي الرمال، والتي كانت تضم أكثر من 20 ألف كتاب ومخطوطة نادرة، حيث دُمرت المكتبة بالكامل في قصف استهدف المنطقة في أكتوبر/تشرين الأول الماضي. وفي نفس الحي، تعرض مركز «القدس الثقافي»، المعروف بتنظيم الفعاليات الثقافية والمعارض الفنية، إلى قصف مباشر أدى إلى انهياره بالكامل.

والخبرات التي تخطر على بالي عند استرجاع تلك الحقبة يحيط بها الخوف، ولا يمكنني تحديد مصدر واحد لكل مشاعر الخوف، فأقول: هذا الخوف ناتج عن المعلمين، أو العلاقة بأقران الدراسة، أو صعوبة المنهاج، أو شكل المدرسة نفسها، لكن يمكنني القول: إنه خليط من هذا كله وأشياء أخرى لا يمكنني تحديدها بصورة مباشرة أو تسميتها بأسماء معينة.

لم تكن مدارس الأونروا وقت دراستي الابتدائية والإعدادية قادرة على أن تشعرني بالأمان، وأزعم أنها لم تكن كذلك بالنسبة لأقراني. فالصفوف المكتظة والضيقة، بالإضافة إلى طبيعة المدرسين وطرق تعاملهم وممارساتهم، كانت مثيرة لمشاعر الخوف والقلق والرغبة الكبيرة والمتنامية في الابتعاد عنها.

ظلت المدرسة خلال فترة الدراسة تراوح مكاناً مرتباً ومشوشاً وغير مرغوب فيه، إلى أن ساقنتي قدمي والصدفة إلى المكتبة للمرة الأولى في حياتي. بدت المكتبة لي من الوهلة الأولى مجالاً رحباً من متعددات لا حصر لها، مكاناً غنياً ومتنوعاً، وعدداً هائلاً بدا وكأنه لا نهاية له من الكتب المختلفة. حينها، وجدت نفسي منكباً على هذه السحابة الفضفاضة من القصص والكتب والصور.

لقد شكّلت المكتبة، ومنذ لحظة الإدراك الأولى، فكرةً للتوّع أمام فكرة اللون الواحد المهيمن والطاغي في المدرسة. ثم شكّلت المكتبة لديّ فكرة الحرية، فالإمكان الآن قراءة العنوان الذي أريد، لا القطعة التي يفرضها كتاب المدرسة للقراءة والتحليل والأسئلة، بل العنوان الذي يدفعني فضولي إليه، والفضول هنا كان معادلاً موضوعياً لمعنى الحرية. الفضول هنا هو أنا وذائقتي ورغباتي في مقابل رحابة المكتبة الواسعة والمتعددة، ولا وسيط أو حاجز بيننا.

إذن، فلحظة التلاقي بيني وبين المكتبة هي لحظة الحرية التي لا أجدها دائماً. ولقد بدت المكتبة بالنسبة لي مكاناً معزولاً وخاصاً وهادئاً ومريحاً، لا صخب ولا هرولة في الممرات الطويلة، بل حضور هادئ في فراغ يفرق في تفاصيل بيضاء وخفيفة. وكلما استرجعت مذاقات المعاشات الأولى في فضاء المكتبة، أتذكر ما قاله بورخيس: «إن المكتبة، كما أحب أن أتخيلها، جنة كونية». عشتُ في هذه الجنة الصغيرة سنوات طويلة من طفولتي ومراهقتي، قرأتُ فيها الكثير من روايات الكتاب المصريين، والتي كانت تُوزَّع على نحو كبير وبصورة

الدولة في إبانه أشبه بالمرج الأخضر الذي ينمو فيه الحب والفاكهة والشوك والعشب المسموم، خضرة زاهية فيها الغذاء والسم يختلطان اختلاطاً لا سبيل فيه إلى الترقية والتمييز».

هذا الدخول والانخراط لكل هذه العناصر وما ارتبط به من ملامح تجديدية على كافة المستويات، تمظهر ثقافياً بواسطة هذه التجربة - مكتبة دار الحكمة - التي كانت تمثيلاً لحالة الاشتباك المعرفي والثقافي والفكري. يذكر الجغرافي الرحالة أبو الحسن المسعودي (283-346 هـ) في كتابه «مروج الذهب»، أن الخليفة أبا جعفر المنصور (95-158 هـ / 712-775 م) أمر بعمل ترجمات كثيرة من اللغات الأجنبية إلى العربية، ومنها الأعمال القديمة لكبار العلماء الهنود والفرس واليونان. وهو أول خليفة تُرجم له من اللغات الأعجمية إلى العربية³.

أخذت مكتبة دار الحكمة البغدادية تمظهرات ثقافية امتدت بلا شك عن أسواق عرب ما قبل الدعوة، عكاظ وغيرها، إلا أن تجليها كان مختلفاً من حيث المحتوى، متوافقاً من حيث الشكل. فأسواق بيع الشعر والمبارزات الأدبية واللغوية والخطابية هي من حيث الشكل نفسها في مناظرات وأصل بن عطاء، والحسن البصري، والمعتزلة، والمناطقية، والصوفية، وغيرهم من المذاهب والاتجاهات الفكرية التي تطورت خلال هذه الحقبة، إلا أن محتواها اللغوي الصرف في عكاظ لم يكن ذاته المحتوى الفكري والفلسفي والمنطقي في دار الحكمة.

والمكتبة في السياق الفلسطيني هي امتداد لهذا التواتر التاريخي والمعرفي والثقافي الطويل، وهي في ذات الوقت ابنة لحظتها الراهنة، اللحظة المهددة بالتوقف والانزياح عن دوران الزمن، بفعل الاحتلال والحروب والانقطاع المفاجئ عن سيرورة النمو الطبيعية. وهذا بطبيعة الحال يرجعنا مجدداً إلى فعل المغول بحرق مكتبة دار الحكمة، وهو فعل يرادف حالة الانقطاع عن الزمن التي خلقتها النكبة الفلسطينية عام 1948. وهذا يعني أن المكتبة ظلت فكرة في العقل العربي، تكتمل ثم ما تلبث أن تعود إلى منطقة صفرية بالنظر إلى الطرف الموضوعي الذي من الممكن أن يبتلعها في لحظة ما، وابتلاعها هو ابتلاع لذات المتزامنة معها كذلك.

الانعتاق من المدرسة إلى فضاء المكتبة

لم أحظ بتجربة تعليم مدرسية جيدة، فكل الذكريات

شراكة للنجاة والإبداع: تجربة مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي مع «أضف»

تجربة العمل مع الأطفال الفلسطينيين الذين نزحوا نتيجة الإبادة إلى جمهورية مصر العربية.

حوار مع غسان الزعانين منسق الأنشطة بالشراكة مع أضف.



في ظل واقع مأساوي يزداد قسوة يوماً بعد يوم، تواصل مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي العمل مع الأطفال والشباب الفلسطينيين، محاولةً خلق مساحات تعبيرية تمكّنهم من الصمود وسط الدمار. على مدار أكثر من ثلاثة عقود، تبنت المؤسسة نهجاً يمكّن الأجيال الناشئة من التعبير عن أنفسهم من خلال الكتابة الإبداعية والرسم والتفاعل النقدي مع العالم، خاصة في ظل الظروف القاسية التي فرضها الاحتلال الإسرائيلي.

وفي ظل الحرب المدمرة التي اندلعت في أكتوبر 2023، والتي أسفرت عن فقدان عشرات الآلاف من الأرواح وتشريد آلاف العائلات، برزت الحاجة إلى مبادرات تدعم الأطفال والشباب نفسياً واجتماعياً، خصوصاً أولئك الذين نزحوا إلى مصر بحثاً عن الأمان. من هنا، جاء مشروع «هنا نبقى/Here we Remain»، بدعم من البيت الدنماركي في فلسطين، كمحاولة لترميم ما تهشم في نفوس الأطفال، عبر برامج تُعيد إليهم حقهم في التعبير

مجانية بواسطة حملة «القراءة للجميع» التي أطلقتها سوزان مبارك في حينه، بالإضافة إلى كتب كثيرة من نتاجات الأدب الفلسطيني من إصدارات «دار الفتى العربي»، وأعداد من مجلة «الكرمل». شكّلت القراءات المبكرة والكثيفة تكويني المعرفي والثقافي في ذلك الوقت، وعشتُ في هوامش المكتبة أوقاتاً متنوّعة ومختلفة تختلط فيها لحظات المتعة بالخوف، والتجلي بالانكماش، والقلق بالهدوء الخارجي، والفوضى الداخلية. لقد أغنتني المكتبة كما لم يُغني شيء من قبل، واعتقتني من لحظات الخوف والشكّ ونكران الذات، وفتحت أمامي بوابات ملوّنة وكثيرة للتخليق والمغامرة، وأشعلت نيراناً هائلة في حقول التردد والانتكاس، ومنحتني اللغة التي سترافقني لسنوات طويلة، والتي سأستظلُّ في فيا فيها، والتي سأركض خلفها وتركض خلفي في دوائر مفرغة كثيرة لا نهاية لها.

ظلّت علاقتي مع المكتبة تنمو يوماً بعد يوم، نموّاً سريعاً لكنه هادئ ومشبع بلحظات مكثفة وشديدة الثراء والخصوصية والمتعة الخالصة. تعرّضت المكتبة ذاتها إلى العزل عن نطاق الفعل، حيث علمتُ فيما بعد أنها أفرغت من كتبها، فحرق جزء منها، فيما وُزعت أجزاء أخرى على مجموعة من الأشخاص، وتحولت، بقدرة قادر، إلى قاعة اجتماعات. مرة أخرى، يحدث الانزياح في فعل المكتبة، ويتعرّض نطاق فعلها إلى البتر والإذابة.

الآن، مجدداً، تزيح حرب الإبادة المكتبات عن حيز فعلها، وهذه المرة إزاحة كبيرة وهائلة وغير مسبوقه، حيث تعرّضت كل المكتبات والمراكز الثقافية إلى تدمير ما بين كليّ وجزيّ، بالإضافة إلى عمليات السرقة والنهب التي تعرّضت لها مكتبات أخرى. توقّف هائل في كل سيرورة المكتبات، التي كانت في الكثير من اللحظات بمثابة نقطة للملمة الذات، كلمات تفرّقت في الدروب وسط واقع النكوص وفقدان الإيمان وانعدام المعنى الذي تسببت به الحرب.

في هذا السياق، نشأت الشراكة بين مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي ومؤسسة أضف، حيث التقت رؤاهما حول ضرورة تمكين الشباب والأطفال وتعزيز التكامل المجتمعي عبر الفن والتكنولوجيا. بدأ التعاون مع وصول فريق من مؤسسة تامر والمتطوعين الشباب إلى مصر، حيث أتاح اللقاء مع فريق «أضف» فرصة للتشبيك والحوار، مما أسس لتعاون قائم على قيم مشتركة، تهدف إلى تقديم الدعم النفسي والاجتماعي وتعزيز مهارات التعبير الفني والإبداعي لدى الأطفال والشباب.

التكامل بين الفن والتكنولوجيا: نحو برامج مستدامة

تتقاطع رؤية «أضف»، التي تركز على تمكين الشباب من خلال الفن والتكنولوجيا وبناء المجتمعات الرقمية، مع رؤية مؤسسة تامر، التي تسعى إلى تعزيز ثقافة التعلم والإبداع عبر البرامج التعليمية والفنية. وقد أثمرت هذه الرؤية المشتركة عن تصميم أنشطة تفاعلية تلبى احتياجات الأطفال النازحين في مصر، مثل مسارات الكتابة الإبداعية والفنون التعبيرية للأطفال من عمر 10 إلى 15 سنة، بالإضافة إلى تدريب الشباب على إنتاج البودكاست، مما يعزز مهاراتهم الإعلامية ويساعدهم على التعبير عن تجاربهم وقضاياهم.

تعكس هذه الشراكة التزام المؤسسات ببناء مجتمع أكثر تفاعلاً وتكاملاً، حيث يمتزج دعم المهارات الفنية والتقنية مع تعزيز القيم المجتمعية والتعليمية، مما يرسخ رؤية مشتركة تقوم على تمكين الشباب والأطفال وتنمية قدراتهم ليصبحوا قادة وصناع تغيير في مجتمعاتهم.

أضف: دور محوري في تصميم وتنفيذ المسارات

تلعب مؤسسة التعبير الرقمي العربي (أضف) دوراً جوهرياً في تصميم وتنفيذ المسارات المختلفة، حيث تخلق فضاءً للتبادل المعرفي بين الميسرين المصريين والفلسطينيين، مما يثري التجربة ويتيح تطوير الأفكار وصقل الأنشطة بما يتناسب مع احتياجات المشاركين. توفر أضف بيئة حاضنة لتنفيذ البرامج والأنشطة، وتسهم في بناء جسور التواصل والشراكة بين الميسرين، مما يعزز من فرص التكامل والتعاون في تنفيذ الأنشطة.

يعدّ التعاون والمرونة من الركائز الأساسية التي تميز نهج أضف، إذ أتاحت المؤسسة مساحة للحوار المشترك بين الفرق المختلفة، وتكيفت مع المتغيرات والاحتياجات

والخلق والإنتاج الثقافي، سواء من خلال الكتابة أو الرسم أو البودكاست أو الفعاليات الفنية المختلفة.

ومن أجل تنفيذ هذه الأنشطة بكفاءة، تسعى مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي إلى التعاون مع مؤسسة «أضف»، التي تمتلك خبرة طويلة في دعم المشاريع الثقافية والفنية في العالم العربي. تقوم هذه الشراكة على أساس تقاسم المسؤوليات، حيث توفر «أضف» المساحات اللازمة للأنشطة، فيما تتولى «تامر» الجوانب الفنية والتنفيذية، مع الالتزام برؤية متبادلة تحترم قيم المؤسسات وتدفع نحو تطوير قدرات الأطفال والشباب في التعبير الفني والإبداعي.

هذا التعاون، الذي يمزج بين الخبرة في المجال التربوي والإبداعي من جهة، والقدرة على خلق بيئات حاضنة للأنشطة الثقافية من جهة أخرى، يهدف إلى تمكين الأطفال والشباب الفلسطينيين من تجاوز المحنة، ليس فقط كمتلقين للدعم، بل كمبدعين يعيدون صياغة واقعهم بوسائلهم الخاصة.

نحاول من خلال هذه المقالة أن نعكس تجربتنا الأولى مع «أضف» في إطار اتساع تجارب المؤسسة ومحاولات تعميم نهجها في العمل مع الأطفال في المنطقة العربية، وبواسطة شراكات مع أجسام صديقة تسعى لتحقيق الأثر ذاته. إن هذه التجربة ليست فقط فرصة لدعم الأطفال الفلسطينيين في هذه المرحلة العسيرة، بل هي أيضاً خطوة نحو بناء جسور تعاون مستدامة تعزز الحق في التعبير والتعلم والإبداع كأدوات للمقاومة والأمل.

نشوء الشراكة مع «أضف»: التقاء الرؤى في لحظة أزمة

منذ بداية الحرب وما تبعها من موجات نزوح قسري للفلسطينيين من غزة إلى مصر، كانت مؤسسة التعبير الرقمي العربي (أضف) من أوائل المؤسسات التي سعت إلى توفير الدعم للناجين من الحرب. عبر برنامج «رنا» - إحدى مبادرات شبكة أضف المعرضة للخطر التي انطلقت في يونيو 2023 - قدّمت المؤسسة ملاذاً آمناً للشباب الفلسطينيين والسودانيين، مقدمة لهم خدمات الإقامة، والدعم القانوني، والمساندة الصحية والنفسية، إلى جانب فرص التعلم والإنتاج الفني. كما سعى البرنامج إلى تعزيز الروابط بين المجتمع المدني المصري، السوداني، والفلسطيني عبر ورش علاج الصدمات (ونسة عافية) والفعاليات الثقافية والفنية.

تنفيذ الأنشطة وتأثيرها على الأطفال

كيف تم اختيار الأطفال المشاركين في المسارات المختلفة؟

تم اختيار الأطفال بناءً على قاعدة بيانات تضم أولئك الذين سبق لهم المشاركة في أنشطة مؤسسة أضف خلال فترة الصيف وما بعدها. تم التعرف عليهم وعلى أهاليهم من خلال أنشطة المعسكرات والورشات الخاصة بالدعم النفسي، مما ساهم في بناء علاقة وثيقة وفهم أعمق لاهتماماتهم واحتياجاتهم. إضافةً إلى ذلك، تم اختيار مجموعة أخرى من الأطفال من خلال شبكة معارفنا، حيث كان الاهتمام بالأنشطة هو المعيار الأساسي للاختيار. خلال اللقاء التعريفي الأول، تم تقسيم الأطفال بناءً على رغبتهم لضمان انسجامهم مع المسارات المختلفة.

ما مدى استجابة الأطفال لأنشطة الكتابة الإبداعية والرسم التعبيري؟

أظهر الأطفال استجابة إيجابية وفعالة لهذه الأنشطة، رغم تفاوت مستوى التفاعل بينهم. هذا التفاوت لم يكن فقط بين طفل وآخر، بل أيضاً بين لقاء وآخر، حيث انعكس على أسلوب تعبيرهم وتفاعلهم مع المواضيع المطروحة. لكن بشكل عام، كان هناك اندماج واضح من قبل الأطفال، حيث أبدوا اهتماماً كبيراً بالأنشطة، مما ساهم في تعزيز مهاراتهم الإبداعية والتعبيرية.

ما التحولات التي لاحظتموها في تعبير الأطفال عن مشاعرهم وأفكارهم عبر هذه الفنون؟

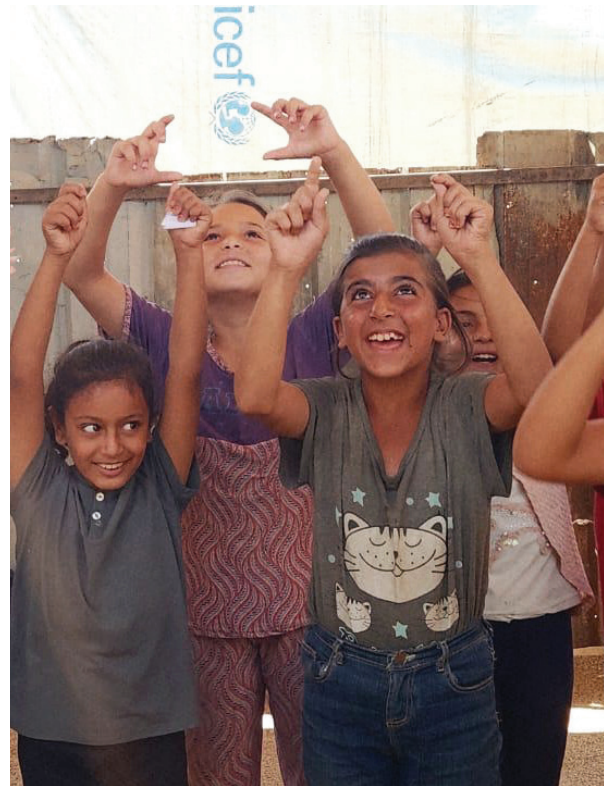
شهدت تعبيرات الأطفال تطوراً ملحوظاً، حيث انتقلوا من الأسلوب المباشر السطحي إلى التعبير الإبداعي العميق غير المباشر. بدأ الأطفال باستخدام الرمزية في لوحاتهم ونصوصهم، وأصبحوا أكثر قدرة على توظيف المشاعر والأفكار بشكل فني يعكس تجربتهم الداخلية. بدلاً من الحديث عن مشاعرهم بشكل تقريري، بدأوا في إظهارها عبر أعمالهم الفنية والأدبية، مما يشير إلى نضج في أساليب التعبير لديهم وتأثير الأنشطة على وعيهم العاطفي والإبداعي.

الميدانية للفريقين الفلسطيني والمصري، مما ساعد على مواجهة التحديات بفعالية وتحقيق الأهداف المشتركة بكفاءة وانسجام.

أثر الشراكة على تحقيق أهداف البرنامج

تمثل هذه الشراكة نموذجاً للتعاون القائم على التكامل والثقة المتبادلة، حيث توفر أضف بيئة داعمة تسهم في تحقيق أهداف البرنامج على عدة مستويات. فمن خلال التعاون الوثيق بين أضف ومؤسسة تامر، تم تأسيس شراكة متينة تمهد لاستمرار العمل المشترك وتعزيز من فرص الوصول إلى أفراد المجتمع الفلسطيني النازح في القاهرة، مما يمنحهم إحساساً بالأمان والدعم في ظل حالة التيه التي يعيشها الفلسطينيون عموماً.

إلى جانب ذلك، توفر هذه الشراكة مساحة آمنة للأطفال والأهالي للتعبير عن تجاربهم ومشاعرهم المرتبطة بآثار الحرب، مما يساهم في دعمهم نفسياً واجتماعياً. وتساعد الأنشطة المقدمة في تعزيز مهارات المشاركين وتطوير قدراتهم، سواء من خلال الكتابة الإبداعية أو الفنون التعبيرية أو التدريب على البودكاست، مما يرسخ الأثر الإيجابي للبرنامج ويجعل منه تجربة ذات تأثير طويل الأمد على المستفيدين.



معالجة الصدمات النفسية عبر الأنشطة الإبداعية

الهوية والانتماء بعد النزوح

كيف يعبر الأطفال عن مفهوم الوطن والانتماء في نصوصهم ورسوماتهم؟

يعبر الأطفال عن الوطن بوصفه المكان الذي يحتوي ذكرياتهم وأحلامهم، حيث يرسمونه غالباً على هيئة بيت يحنون إليه، أو مدينة ترتبط بأصوات وروائح معينة لا تزال تسكن ذاكرتهم. في نصوصهم، يصفون الوطن بمفردات تمزج بين الحب والألم، وبين الشوق والحنين، مستخدمين الرمزية في بعض الأحيان للتعبير عن مشاعرهم العميقة.

كيف أثر النزوح على نظرتهم لأنفسهم ولمجتمعهم الفلسطيني؟

شعر العديد من الأطفال بأنهم فقدوا جزءاً من قيمتهم الذاتية خلال رحلة النزوح، حيث انعكس ذلك في إحساسهم بالعزلة أو عدم الاستقرار. ومع ذلك، لم نشعر بأن هذه التجربة أثرت على قيمة الوطن لديهم، بل على العكس، ازداد ارتباطهم به كفكرة وذاكرة. قد يكون هذا بسبب عدم إدراكهم الكامل لتأثير النزوح على الهوية والمجتمع، أو لأنهم لا يزالون يحتفظون بذاكرياتهم البريئة عن الوطن، مما يحافظ على صورتهم الإيجابية عنه.

هل ظهرت مشاعر الحنين أو الاغتراب في كتاباتهم ورسوماتهم؟

نعم، برزت مشاعر الحنين والغربة بوضوح في أعمالهم، حيث ظهرت مشاعر الحب والألم، الفقد والافتقاد، وأحياناً النقمة والغضب. عبّروا عن الوطن كحلم بعيد، وعن بيوتهم كمكان فقدوه قسراً لكنهم لا يزالون يتخيلونه ويحنون إليه.

كيف يمكن لهذه الأنشطة أن تعزز شعورهم بالانتماء والهوية رغم التهجير؟

تساعد هذه الأنشطة الأطفال على إعادة بناء علاقتهم بالوطن بطريقة إبداعية، حيث تمنحهم مساحة للتعبير عن مشاعرهم تجاهه دون خوف أو قيد. كما أنها تعزز لديهم الإحساس بالهوية والانتماء من خلال مشاركة تجاربهم مع أقرانهم، مما يخلق شعوراً بالتواصل والاستمرارية رغم التهجير. بالإضافة إلى ذلك، تسهم هذه الفنون في تحويل مشاعر الحنين إلى طاقة إبداعية تساعدهم على التكيف مع واقعهم الجديد، دون أن يفقدوا صلتهم بجذورهم وهويتهم الفلسطينية.

رغم أننا لسنا مختصين في مجال الدعم النفسي، إلا أننا لاحظنا من خلال تفاعل الأطفال أن التعبير الإبداعي ساعدهم في التخفيف من وطأة الصدمة الناتجة عن النزوح والحرب. حديث الأطفال عن البيت والرحيل عبر الكتابة والرسم، مع توظيف مشاعرهم الحقيقية في أعمالهم، منحهم وسيلة للتفيس والتعامل مع المشاعر المعقدة التي يمرون بها. أصبحت الكلمات والألوان بمثابة أصدقاء لهم، يودعون فيها جزءاً من مشاعرهم وأحزانهم، مما ساهم في تخفيف العبء العاطفي عنهم ومنحهم مساحة آمنة للتعبير عن ذواتهم.

توسيع التعاون مع أضعف والأنشطة المستقبلية للأطفال النازحين

هناك توجه واضح نحو توسيع نطاق التعاون بين مؤسستي تامر وأضعف ليشمل أنشطة إضافية للأطفال النازحين، بهدف تعزيز الدعم النفسي والاجتماعي لهم. تسعى المؤسسة إلى تطوير برامج جديدة تتماشى مع احتياجات الأطفال في السياق الحالي، مع التركيز على مجالات الفنون، الكتابة الإبداعية، والتكنولوجيا الرقمية. كما يتم بحث إمكانية توسيع الأنشطة لتشمل ورشاً تفاعلية تستهدف فئات عمرية مختلفة، إضافة إلى تطوير برامج تدريبية للميسرين الشباب لضمان استدامة العمل مع الأطفال وتوسيع نطاق التأثير المجتمعي.

التحديات في تنسيق وتنفيذ الأنشطة وسبل التغلب عليها

في سياق تنسيق وتنفيذ الأنشطة، برزت عدة تحديات رئيسية تطلبت حلولاً مرنة ومبتكرة لضمان نجاح البرنامج وتحقيق أهدافه.

التنسيق اللوجستي المعقد

نظراً لتعدد أماكن إقامة المشاركين في القاهرة وتفاوت احتياجاتهم، كان من الضروري تطوير آليات تنظيم مرنة تتيح مشاركة أوسع. قمنا بجدولة الأنشطة بما يتناسب مع مواعيد الأهالي وبرامج التعليم الإلكتروني للأطفال، مما ساعد على تسهيل عملية المشاركة وضمان استمراريتها.

تحدي الوصول والمسافات

توزع المشاركون في مناطق متفرقة داخل القاهرة، مما شكل عائقاً بسبب بُعد المسافات وتكلفة التنقل، لا سيما للأطفال والأهالي. للتغلب على ذلك، تم توفير بدلات مواصلات للمشاركين من الشباب والأطفال، مع متابعة وتنسيق مستمر مع الأهالي لضمان حضورهم المنتظم.

توزيع الحقائق التعليمية على الأطفال المصابين والمرضى والأيتام

كان الوصول إلى الأطفال الفلسطينيين من غزة الذين يتلقون العلاج في المستشفيات المصرية أحد أبرز التحديات، نظراً لوجودهم في محافظات مختلفة والإجراءات المعقدة المتعلقة بزيارتهم. لمواجهة ذلك، تم التنسيق مع مؤسسات وجهات محلية معنية بمتابعة أوضاع الأطفال المصابين، مما ساعد في تسهيل عملية إيصال الحقائق التعليمية إليهم في القناطر، الإسكندرية، القاهرة، وبورسعيد.

رغم هذه التحديات، ساهمت المرونة وروح التعاون بين مؤسستي تامر وأضعف في تجاوز العقبات وإنجاح الأنشطة. كان التفاهم المشترك، والاستجابة السريعة لاحتياجات المشاركين، وبناء شراكات فعالة مع الجهات المحلية عوامل أساسية في تحقيق أثر إيجابي مستدام وتعزيز الدعم للأطفال وأسره في هذه الظروف الصعبة.

أم يوسف: حين تصير الخيمة مكتبةً، والكتاب فعل حياة



الجدران، الكلمة ما بتموت. حملت معي الكتب
اللي قدرت أطلعها من تحت الركاب، وقلت: راح
أرجع الحكاية، لو من قلب خيمة.»

لم يكن معها رفوف، ولا مساحات مريحة، لكن كان معها
إيمانها، وصندوق صغير فيه بعض الكتب. بدأت تستقبل
الأطفال من حولها، تقرأ لهم القصص، تمامًا كما كانت
تفعل قبل الحرب. تروي «أم يوسف» حكايات من كتب
مثل من سيفني لياسمين، وفي مدينتي حرب، وقلبي
يشبه القمر، وأخرى كثيرة. تجلس الأطفال حولها، تصنع
من صوتها غطاءً دافئاً، ومن القصة مساحة للتنفس،
والخيال، والسؤال.

«الأطفال كانوا خافين، ما بيناموش بالليل، ما
بيحكوش كثير. بس أول ما بلشت أحكيلهم قصة،
شفت لمعة بعينهم. شفتمهم بيسألوا وبيضحكوا
وبيتخيلوا. القصة رجعتهم صوتهم.»

لكن الحكاية لم تقف عند القراءة. الخيمة تحولت تدريجياً
إلى مركز صغير للفنون والتعبير، إلى ما يشبه مدرسة
مؤقتة للخيال. بدأت أم يوسف بتنفيذ تمارين للكتابة
الإبداعية مع الأطفال، تشجعهم على وصف أحلامهم،
بيوتهم، المدن التي غادروها تحت النار. كان الأطفال
يكتبون، يرسمون، يتبادلون الحكايات التي لا يمكن لأحد
أن يرويها غيرهم.

ومع الوقت، صار المكان أديماً. لم تكن أم يوسف تكتفي
بالكتب، بل حاولت أن تعيد للأطفال شيئاً من إحساس
الحياة اليومية الطبيعية. كانت تعجن معهم الدقيق، وتخبز
لهم أرغفة صغيرة على صاج النار، وكأنها تقول لهم: «نحن
ما زلنا هنا، ما زال بوسعنا أن نصنع خبزنا بيدينا، أن نأكل
سويًا، أن نضحك.»

«الخبز مش بس طعام. لما أعجن مع الأولاد،
أحس إنهم بيرتاحوا، بيحكولي عن بيوتهم، عن
إخوتهم اللي ضاعوا. نخبز ونحكي ونرسم، وكأننا
بنبني عالم جديد، عالم طيب.»

الأصناف قليلة، والظروف أقسى من أن توصف، لكن
الوجبات التي كانوا يعدونها معاً كانت تبعث على الراحة.
في لحظات الطعام تلك، ينزاح عبء الحرب قليلاً، وتحضر
روح الأسرة، والجيرة، والرغبة في النجاة.

تؤمن أم يوسف أن الكتب لا تُغيّر العالم فوراً، لكنها تُغيّر
شيئاً في روح الطفل الذي يقرأ، أو يسمع، أو يكتب.

ليست كل الحكايات تبدأ من مكان مرتّب وهادئ. بعضها
يولد تحت القصف، وبعضها الآخر يشق طريقه من قلب
الخيمة. في واحدة من زوايا النزوح في منطقة الزاوية
وسط قطاع غزة، تقيم إنعام عمر، المعروفة باسم «أم
يوسف»، خيمتها، التي لا تشبه الخيام كثيراً. خيمة تخرج
منها أصوات حكايات لا صفيّر رصاص، وأحلام صغيرة
تُحاك من كلمات، لا من شظايا.

كانت أم يوسف، ولسنوات طويلة، أمينة مكتبة حيدر عبد
الشافعي في غزة. بوجهها البشوش وصوتها الدافئ،
حوّلت المكتبة إلى بيت ثانٍ للأطفال واليا فعين. هناك،
قبل الحرب، كان الأطفال يجدون ملاذهم بين الرفوف،
في القصص، في الرسم والكتابة. كانت جلسات القراءة
اليومية جزءاً من نبض المكان، كما لو أن الكلمات تداوي
ما تعجز عنه يد.

لكن الحرب الأخيرة ضربت كل شيء. لم تسلم المكتبة من
القصف، ولم تسلم أم يوسف وعائلتها من التهجير. نزحت
من حيها، كما مئات الآلاف من العائلات الغزية، مراراً،
حتى وصلت إلى خيمة صغيرة في الزاوية. لم يكن في
الخيمة متسع كثير، لكنها قررت أن تبدأ من هناك. من
ركام الذكرى، ومن رماد المكتبة، عادت لتبني شيئاً.

تقول أم يوسف: «يوم فقدت المكتبة، شعرت كأني
فقدت بيت عمري. لكنني قلت لنفسي: لو ضاعت

القراءة تحت النار: شهادات من غزة عن فعل القراءة زمن الإبادة



في قلب ما يمكن وصفه بأقصى مراحل الإبادة التي عرفها الفلسطينيون في غزة، ينهض فعل القراءة كمقاومة، كشكل من أشكال النجاة، وكصيغة من صيغ الإيمان بالإنسان والكتابة والمعنى. في هذه المساحة التي تتسع للشهادة والتأمل، نستعرض ثلاث تجارب لثلاثة من الكتاب والكاتبات الذين عاشوا الحرب وكتبوا تحتها، وحملوا الكتاب معهم في رحلة النزوح كما يحمل الإنسان قلبه. تعقب هذه الشهادات قراءة نقدية معمّقة قدمتها الكاتبة والباحثة داليا طه، حول معنى القراءة تحت الحرب، وتاريخ اضطهاد الكتب في فلسطين، والعلاقة الوثيقة بين الكلمة والمصير.

أصيل سلامة: الكتابة صارت طريقي للنجاة وتوثيق الحياة

أصيل عبد السلام سلامة، لاجئة من قرية بينا، تبلغ من العمر 24 عاماً. اضطرت للنزوح مراراً منذ العاشر من مايو، حتى استقرت في خيمة بمواصي خانيونس. تكتب أصيل عن الحرب لتوثيق تفاصيلها، ولإضاءة حياة الأطفال الذين يحيطون بها. تقول: «صرت أشعر بأنني إعلامية نفسي وأهلي وحارتي... السؤال الذي كان يحفزني: لم لا أوثق كل لحظة أعيشها؟»

تبدأ أصيل الكتابة كمن يكتب يومياته، ثم تتلقى دعماً من متابعين وأدباء مثل محمود شقير، الذي قال لها: «استمري،

«أنا ما عندي سلاح، وما بعرف أشتغل سياسة، بس بعرف أفتح كتاب، وأحكي حكاية، وأعطي طفل قلم. وهذا كفاية... هذا فعل مقاومة كمان.»

وهي، في هذا السن، وبعد كل ما مرت به، لا تزال تمنح الأطفال طاقة وشغفاً، كأنها تقول لهم في كل جلسة: «أنتم مهمون. أصواتكم تستحق أن تُسمع. وحكاياتكم أهم من كل نشرات الأخبار.»

تقول إحدى الأمهات من الخيام المجاورة: «لم نكن نعلم إلى أين نذهب بأطفالنا. كل الأماكن خطيرة أو قاسية. لكن خيمة أم يوسف جعلت أطفالنا بيتهم من جديد. صاروا يعودون وهم يحملون أوراقاً ورسومات، يطلبون منا أن نقرأ معهم.»

هكذا، دون دعم مؤسساتي أو تجهيزات كبيرة، بنت أم يوسف من الخيمة مكتبة. من صوتها، وسيرتها، وحضورها، خلقت مساحة تقاوم الخراب بالإبداع، والخذلان بالحب، والخوف بالحكاية.

ربما ستبنى المكتبة يوماً من جديد، بحجارتها ورفوفها الكاملة. لكن الأهم، أن روحها لم تغب يوماً، بل انتقلت إلى الخيمة، وإلى قلوب الأطفال الذين يركضون كل صباح لسماح قصة جديدة من أم يوسف.

«طلما في طفل بيستنى قصة، رح أضل أحكي.»

يعود تدريجياً لفعل الكتابة. يستغني عن طقوس القراءة القديمة، فالقهوة نادرة، والسكون غير موجود، والسطح لم يعد آمناً. يتأقلم مع واقع جديد، لكنه لا يتخلى عن الكتب.

داليا طه: القراءة ليست تأويلاً للنص، بل مقاومة ضد نسيان الإنسان

في قراءة تأملية غنية، قدمت الشاعرة والكاتبة داليا طه مقارنة حول فعل القراءة زمن الحرب، مؤكدة أن ما يكتبه كُتّاب غزة هو من أثنى ما يُكتب اليوم، وأن هذه النصوص ستغير نظرتنا إلى معنى القراءة والكتابة.

هذه اليوميات ستصبح كتاباً». وهكذا كان. ألفت كتابين أثناء الحرب: «أصيل والأطفال الخمسة» و«قمر 14»، وهي الآن بصدد إصدار كتاب ثالث.

رغم النزوح وضيق المساحة، لم تنسَ أصيل أن تحمل معها كتبها. تقول: «رفضت أن أترك كتبتي في المكتبة... كنت أطلع من وقت لآخر، وأشعر أنني أنقذت جزءاً من عالمي.» تؤمن أصيل أن الكتابة والقراءة توأمان في زمن الحرب، وهما أولى خطوات التعافي.

هناء أحمد: القراءة مساحة آمنة وسط العتمة

من مخيم المغازي، تروي الكاتبة هناء أحمد علاقتها الحميمة بالقراءة، التي بدأت منذ الطفولة، وتعززت من خلال عملها في مكتبة القطان. خلال الحرب، تحوّلت القراءة إلى فعل نجاة: «كنت أرفع صوتي وأنا أقرأ لأغطي على صوت القصف، لأقول لنفسني إنني لا أزال أسيطر على شيء.»

كتاب «ظل الريح» كان بداية عودتها للقراءة في زمن الحرب. كانت تغمض عينيها وتتخيل الشخصيات والمقبرة السرية للكتب، وتبني في خيالها ملاذاً بعيداً عن القتل. وعندما نزحت من المغازي إلى دير البلح، أخذت كتابها معها كمن يحمل تميمة. رغم أن بيتها نُهب وتمزيق الكثير من كتبها، تظل تؤمن بأن الكتب ساعدتها على البقاء: «أنا متشككة في كل شيء، إلا أن الكتب ساعدتني في تخطي مراحل صعبة في حياتي، حتى في الحرب.»

محمد غنيم: الكتابة تعود كنداء

داخلي بعد الصمت

الكاتب والقاص محمد غنيم، عضو اتحاد الكتاب الفلسطينيين والفائز بجائزة الكاتب الشاب عن مجموعته «ما وراء المرايا»، يبدأ حديثه من العائلة، من رزم الكتب التي كانت تُنقل أيام بناء بيت جديد، ومن نظرات الجيران المستغربة من هذا الكم الهائل من الكتب.

في الحرب، يتوقف كل شيء. يقول: «لم أقرأ كتاباً طوال الشهرين الأولين من الحرب. لم أفكر بالكتابة. فقط أردت أن أضم ابنتي وزوجتي، وأن ننجو.» لكنه يعود للكتابة مع استكمال العمل على مجموعته، ويشعر أن نصوصه القديمة بدت باهتة أمام عنف الواقع.

عندما نرح، لم يحمل حقيبة كتبه رغم أنه قضى وقتاً في تجهيزها. «لم يعد هناك وقت للقراءة، فقط للنجاة.» لكنه

و«سما»، وكأن الحرب متواجدة وسط مسار اللعبة، إلا أن لونها الأرضي يجعلها «قابلة للتجاوز» في اللعبة التي لا تنتهي، حيث يستمر الأطفال في اللعب متجاوزين الحرب بصبر طفولي. هذه اللعبة تمثل الصراع بين رغبتهم في الحياة واللعب وبين واقع الحرب الذي يحيط بهم.

متى تنتهي الحرب؟



تصدر في هذه الرسمة طواير الحواجز والمتاريس، وخيمة للنازحين، وامرأة ترتدي البرتقالي تبكي أطفالها. رغم الألم، هناك ورود ملونة تعكس الفراغ الذي تتركه الحرب في حياتهم، والكلمات المكتوبة تعبر عن حكايات الحرب التي لم تنته: «متى سوف تخلص؟ حكاية، قصة، صمت، رواية وطني». السؤال الأهم يطرح نفسه: هل تنتهي الحرب عندما نردد سرديتنا الفلسطينية؟ هذا يضع الحكمي الفلسطيني في قلب المعركة، بين الألم والأمل.

مسار العودة إلى البيت في رسومات الأطفال في فلسطين

لينا مرهج

حق العودة هو حق متجذر في تاريخ النضال الفلسطيني، نص عليه القرار الدولي الصادر في 27 يونيو 1948، وحُمي بموجب القانون الدولي. هذا الحق لم يكن مجرد شعار أو فكرة فقط، بل كان تجربة حية في ذاكرة الفلسطينيين، على يد أجيال نشأت مع قصص النزوح واللجوء والأمل بالعودة. في ورشة عمل بعنوان «مسار العودة إلى البيت»، أتيحت الفرصة لمجموعة من الأطفال الفلسطينيين تتراوح أعمارهم بين 10 و15 عاماً، لتعبير مشاعرهم عبر الرسم، مستكشفين ما يعنيه لهم «العودة» وسط ما خلفته الحرب من ألم وفقدان.

هذه القراءة محاولة لفهم ما رسمه هؤلاء الأطفال من خلال عدسة فنية وإنسانية، مستعرضة بعض أبرز الرسومات والتساؤلات التي طرحوها، لتأمل كيف يرون الحرب والعودة، وكيف يتخيلون مستقبلهم بين اللعب والخوف، والأمل.

متى سنعود؟ (قراءة في لعبة الماريل)



لعبة الماريل التي رسمها الأطفال، عادةً ما تكون رحلة صعود نحو السماء عبر مربعات ملونة، لكنها هنا تمثل المسار المليء بالحروب والهجمات التي تحاصرهم. في الرسم، تقع كلمة «حرب» بين مربعين يمثلان «هدنة»

هل سيكون هناك بيت؟



رسم الأطفال خيمة، لكنها ليست مجرد مأوى، بل بيتٌ بشبابيك وباب وسرير، رغم شفافيته وجدرانه الخالية. ظل البيت صلب في وجه الشمس، وهو الحامي من العواصف. الخيمة هنا تُمثل الواقع المؤلم للنازحين، لكنها أيضاً تجسد صمودهم وواقعهم الذي يعيشونه رغم القهر.

هل ستكون هناك مدرسة؟



رسمه شنتطة المدرسة التي يظهر فيها الطفل كأنه يفوض داخلها، تمثل مخزون المعرفة الذي يحمله الأطفال رغم كل الظروف، حيث الكتب قد تأخذهم إلى عوالم أخرى غير الواقع الصعب. الطفل في هذه الرسمه هو المدرسة نفسها، رمز التعلم والأمل.

كيف سنعود؟



في هذه الرسمه، تجسد فتاة فلسطينية تحتضن العلم الفلسطيني والبيت، والبيت يضم حماراً، رمزاً للحياة والألم. عيون الفتاة الزرقاء المحملة بالأسود تعبّر عن القلق والحزن معاً. الشكل المتموج والدائري يعكس ليونة الحماية والدفع، والاتجاه نحو الداخل يرمز إلى العناية بالذات، رغم كل ما ألمّ بالمنزل من جراح. هو بيت ينبض بالحياة رغم الحزن، وهنا يستقر الأمل في القلب.

شهادات الميسرين

وهل سيكون هناك أمل؟

آلاء الجعبري

فنانة تشكيلية وميسرة نشاط «مسار العودة إلى البيت» ساهم المشروع في ترتيب فوضى المشاعر والأفكار لدى الأطفال. بدأنا بتجاوز حاجز «الذاكرة» عبر الحديث المفتوح والأسئلة التي حفزت الخيال والإبداع، حيث عانى الأطفال من فقدان الأمل وسط الرماد والخيام. عبر الرسم، استطاع الأطفال أن يجمعوا بين ما فقدوه وما يعيشونه الآن، وأن يزرعوا الأمل في أناملهم التي قضمها الألم.

التجربة أثارت مشاعر متباينة بين الفرح والدهشة أحياناً، وحتى البكاء أحياناً، حيث خرج الأطفال بلوحات تعكس أفكارهم وأحلامهم، وفتح البعض باب الكتابة إلى جانب الرسم. كانت الجلسات متعددة، فكل فكرة تحتاج إلى وقت لتتبلور وتخرج في صورة ملموسة. ولحظات لا تنسى حين ربطت إحدى الفتيات لوحاتها بحياتها، وطلبت حملها معها دوماً.

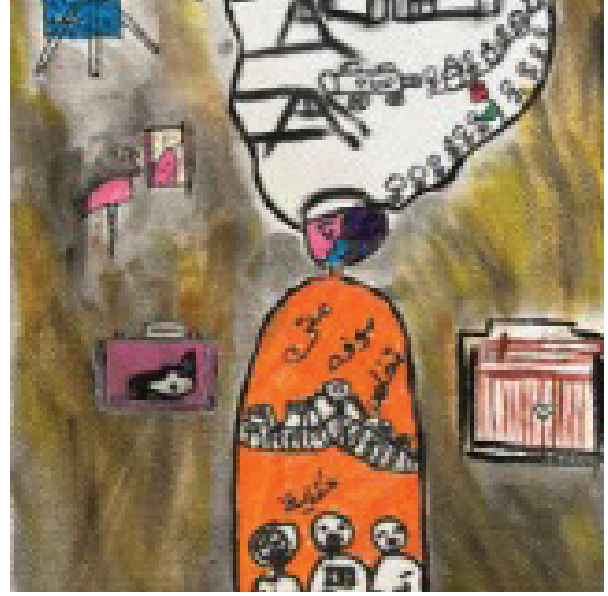
«متى تنتهي الحرب؟» كان السؤال المتكرر، يعكس وهم الحرب الذي لا يزول من عقول الأطفال. في النهاية، كان المسار رحلة بحث عن الذات، ومخرجاً صامتاً من الواقع، وفتح نافذة للأمل والخيال في قلب غزة.

حازم الزمر

فنان تشكيلي وميسر نشاط «مسار العودة إلى البيت»

كان المشروع هروباً نفسياً وجسدياً لي كفنان، ومن خلال الحوار والأنشطة حاولنا مع الأطفال كسر حاجز الصمت، والتعبير عن تجاربهم في الحرب، كالخوف، الأمان، والبدائل التي فرضتها عليهم الظروف مثل الخيام والبيوت المؤقتة.

اختلفت المجموعات من حيث الظروف، فبعضهم نازحون داخل مراكز إيواء، والبعض الآخر في الحارات. طرحنا أسئلة حيوية وبدأنا بتجربة الألوان والاستكشافات، حتى الوصول إلى اللوحات النهائية. رغم القصف والدمار الذي استمر أثناء الورش، كان الأطفال متحمسين ومستمرين، وقد أثرت التجربة فيهم عميقاً، فارتبطوا بأعمالهم الفنية، ووجدوا في الرسم وسيلة للتعبير عن الذات وسط الفوضى.



أمل الأطفال ينبع من جمال الطبيعة التي تمثل الحياة، بألوانها الزاهية، عكس الخراب الرمادي. الزهرة الحمراء التي تنبعث منها صواريخ الرّد، هي البطل الخارق الذي يحمي البيت ويرافقه في وسط الركاب. هذه الطبيعة هي سر الحياة والتجدد، وهي أمل الفلسطينيين في مستقبل أفضل.

وكيف سيكون الأمل؟



رسم الأطفال فقاعات ملونة تحمل رموزاً للحياة اليومية مثل البيت والكتاب والملابس، تعكس الحياة البسيطة التي يتمنونها. الحياة التي تبدأ من أساسيات بسيطة تنسج الأمل في مستقبل مرتب ومنظم، يستخدم لغة العصر والحداثة.

«معجم الإبادة»: كيف يعيد أطفال غزة صياغة الألم والواقع بلغة جديدة؟



ورشة «مسار العودة إلى البيت» ليست مجرد جلسات رسم للأطفال، بل هي فضاء أمني يحتضن مشاعرهم ويعطيهم فرصة لتحويل الألم إلى أمل، والخوف إلى لعب وتخيل. من خلال هذه الرسومات والكلمات، نرى كيف يواجه أطفال فلسطين واقعهم، ويرسمون مستقبلهم بحبر الحياة رغم كل الجراح.

إنها قصة عادية لطفولة تحاول أن تبقى على قيد الحياة، وتثبت أن العودة ليست حلمًا بعيدًا، بل مسارًا يُرسم بخطوات صغيرة، بين اللعب، والحنان، والخيال.

بعد سنوات من الحصار والحروب المتكررة على قطاع غزة، نشأت في أعماق المدينة حياة جديدة، لا تشبه حياة أي مكان آخر. في خضم الدمار، وانعدام الأمان، ونزوح الآلاف، تتغير مفردات الحياة اليومية، وتتكون لغة جديدة تعكس صدمة الواقع الذي فرضته الإبادة. هنا يولد «معجم الإبادة»، ليس فقط كأداة لغوية، بل كتعبير حي عن تجربة جمعية قاسية، تتخطى الألم لتصبح صوتاً للمقاومة والذاكرة.

لماذا معجم الإبادة؟

معجم الإبادة ليس مجرد مجموعة كلمات، بل هو نافذة على الحالة الإنسانية في غزة، وهو طريقة لفهم كيف يرى الأطفال والناس محيطهم الجديد، وكيف يتعاملون مع التغيرات التي فرضتها الحرب على نمط حياتهم. ففي ظل القصف الذي هدم البيوت، والخيام التي تحولت إلى مساكن مؤقتة، والطرق التي تغيرت بسبب الحواجز والحصار، ظهرت مفردات جديدة ترتبط بهذه التجربة اليومية.

مثل كلمات: «طائرة»، «خيمة»، «مركز إيواء»، «نازح»، «شادر»، «تكتوك»، وغيرها، والتي تشكل معجمًا تعبيرياً يعكس واقعاً مليئاً بالقلق والخوف، ولكن أيضاً بالأمل والرغبة في الصمود.

الأطفال يعيدون بناء الواقع من خلال كلماتهم ورسوماتهم

لم يكن هذا المعجم مجرد سرد للحقائق بل تحوّل إلى تجربة تعبيرية بصرية، ضمن مشروع «معجم الإبادة» الذي أطلقته مؤسسة تامر، والذي جمع أطفالاً من مختلف المناطق في غزة لتوثيق مفرداتهم الخاصة، مستخدمين الرسم والكتابة كأدوات تعبيرية.

تقول بسنت الدلو، فتاة من خان يونس تبلغ من العمر 13 عاماً، عن كلمة «كارة الحمار»:

«كنا في مكاننا ومستقرين وفجأة اقتحم الجيش الإسرائيلي مكان قريب منا، فقررنا النزوح ولكن كان هناك مشكلة وهي كيف سننتقل نحن وأمتعتنا الكثيرة. قالت أمي: ماذا سنفعل؟ نظرنا لبعضنا ونحن في حيرة من أمرنا، اتصلت أمي بقريتنا الذي يملك كارة بحمار وسألته: هل نستطيع استئجار الكارة بمبلغ 200 شيكل؟ وافق قريتنا وجاء بالكارة، وضعنا عليها أغراضنا وأمتعتنا وغادرنا المكان بسرعة، لم أكن أتخيل يوماً أننا سنلجئ لمثل هذه الوسيلة ولكن في الحرب توقع كل شيء.»

هذه القصة التي تحمل معنى عميقاً في بساطتها، ليست فقط سرداً لنقل، بل هي رمز لتغير الظروف، وكيف أن وسائل الحياة البسيطة القديمة تعود لتلعب دوراً هاماً في أوقات الكارثة.

تشرح المفردة «كارة الحمار» بأنها:

«عربة مصنوعة من الأخشاب وفي أسفلها أربع عجلات مطاطية تشبه عجلات السيارة، يجرها حمار أو حصان، ولقد تم استخدامها على نحو واسع في قطاع غزة كوسيلة لنقل الأشخاص والبضائع والأدوات أثناء النزوح والتنقل بين الأمكنة.»

«الطائرات الغربية تلقي علينا الطعام»

قصص الأطفال لا تقتصر على وسائل التنقل، بل تعكس أيضاً التفاعل مع عناصر الحرب والوجود الغريب، مثل الطائرات التي لا تأتي بالطائرات الحربية، بل بالمساعدات الغذائية. تقول دانا أبو سلطان، من خان يونس، البالغة من العمر 11 عاماً:

«كانت الطائرات الأمريكية تلقي بارشوتات ممتلئة بالوجبات الغذائية، وكان أخي من ضمن الأشخاص الذين ذهبوا إلى منطقة الأمن العام قريباً من البحر عسى أن

يحالفه الحظ ويحصل على وجبات، في المرة الأولى سرقت حقيبته وكانت ممتلئة بالمعلبات ولكن في المرة الثانية حالفه الحظ وجلب لنا علب حمص وفول وتونة وصلصة، بينما جلب لنا في المرة الثالثة منظفات وأخيراً في المرة الرابعة والأخيرة جاء لنا بالوجبات الأمريكية.»

تقدم هذه القصة صورة حية عن التفاعل الغريب مع «الطائرات الغربية»، وعن العلاقة بين الناس وعناصر من الحرب والمساعدات، وكيف تشكل المفردات التي تعبّر عن هذه التجربة.

المفردة «البرشوت» التي تشرحها دانا هي:

«قطعة من القماش الخفيف الذي يهبط من طائرات المساعدات وتتعلق به صناديق المساعدات التي يتم إسقاطها من السماء وسط تجمعات خيام النازحين، حيث أسقطت طائرات أردنية وأمريكية وهولندية ومصرية وإماراتية وغيرها مساعدات باستخدام هذه الطريقة.»

أكثر من 100 كلمة تحكي قصة غزة الجديدة

هذه الأمثلة ما هي إلا جزء صغير من نحو 100 كلمة جديدة تبلورت خلال السنوات الأخيرة، تعكس واقع النزوح، الحصار، الحرب، والنجاة. من كلمات تعبّر عن الأشياء التي كانت يوماً عادية، لكنها أصبحت اليوم رموزاً لتجارب إنسانية عميقة.

لم يعد «البيت» مجرد مكان للإقامة، بل أصبح «الخيمة»، و«المركز الإيوائي» هو الوطن المؤقت. و«النازح» ليس مجرد شخص هاجر، بل حالة مستمرة من انعدام الاستقرار.

اللغة كفعل مقاومة وذاكرة جماعية

ما يميز هذا المعجم هو كونه أكثر من مجرد لغة، بل هو شكل من أشكال المقاومة والتوثيق. إذ أن الكلمات ليست فقط علامات رمزية، بل أدوات لتكوين الذاكرة الجمعية للأطفال وأسرهم، وأداة لإعادة بناء الهوية وسط حالة التشريد والتفكك.

يقول حازم الزمر، فنان تشكيلي وميسّر في المشروع:

«من خلال رسم الأطفال، يمكننا رؤية كيف يحاولون الأمل والذكريات إلى رموز وألوان، وكيف يبنون قصصهم الخاصة التي تعبّر عن خيالهم، صراخهم، ورغبتهم في استعادة كرامتهم.»

مادلين... بحر الحصار وأمل العبور



عن لوحة فنية ولدت من قلب الحصار، وعن الأطفال الذين يرسمون البحر بأمل لا حدود له

في أحد مراكز الطفولة بمدينة غزة، وبين خيوط القماش وألوان الخيال، اجتمع أطفال ليحكوا حكاية عبر الفن، حكاية ليست من نسج الخيال بل من لحم الواقع: قارب صغير اسمه «مادلين»، أبحر في العام 2018 من أوروبا محاولاً الوصول إلى شواطئ غزة، كصرخة احتجاج على الحصار، وكحلم رمزي لكسر الجدران البحرية التي تعزل أكثر من مليوني إنسان عن العالم. قارب صغير حمل في قلبه نشطاء سلام وأطباء وممرضين ومفكرين من مختلف دول العالم، أرادوا أن يقولوا: لسنا وحدنا.

هذه الحكاية، التي يعرفها القليل من الأطفال في غزة، تحوّلت في الورشة الفنية إلى لحظة إبداعية، إلى مساحة للحلم، والمقاومة، والانتماء. كان الهدف أن يشارك الأطفال في إنتاج لوحة فنية جماعية، لا تُرسم بالفرشاة فقط، بل تتسج بالخيوط، وتُطرز بالأزرار، وتُطعم بالأقمشة، وتُبنى بتعاون الأيادي الصغيرة على سطح لوحة قماشية واحدة.

الفن كنافذة على الحرية

بدأت الجلسة بسرد قصة «مادلين»، ولكن ليس بطريقة المحاضرة، بل عبر أسئلة مفتوحة: ما هو الحصار؟ هل تحلمون أن يزوركم أحد من الخارج؟ هل يمكن لسفينة أن

وتضيف آلاء الجعبري، ميسرة النشاط:

«الرسومات والكلمات التي أنتجها الأطفال هي نافذتهم لفهم أنفسهم والعالم من حولهم. لقد وجدوا في التعبير الفني مساحة للحوار، للفرح، للبكاء، وللأمل، رغم كل ما واجهوه.»

ماذا يعني معجم الإبادة لنا؟

في وقت يعاني فيه قطاع غزة من تدمير ممنهج وإبادة متصاعدة، فإن لغة الأطفال تفتح لنا نافذة غير مسبوقه على تجربة الحرب الإنسانية من الداخل. هذا المعجم هو شهادة حية على أن الحصار والدمار لا يستطيعان طمس صوت الأطفال ولا إرادتهم في التحدث.

إن توثيق هذه المفردات والرسومات لا يساعد فقط في حفظ الذاكرة الجماعية، بل يمنحنا أدوات لفهم أعمق للصراعات التي يمر بها الأطفال، ويساهم في تصميم تدخلات نفسية واجتماعية أكثر حساسية وفعالية.

في النهاية، «معجم الإبادة» ليس فقط مفردات، إنه لغة جديدة تشكلها الحرب، تشكلها التجربة، تشكلها المقاومة. أطفال غزة يعيدون كتابة العالم من حولهم عبر كلمات ورسومات، يختصرون الحكاية بكل تعقيداتها في رموز صغيرة لكنها كبيرة في معناها.

وهكذا، نجد في هذه الكلمات والرسومات صوتاً للطفولة التي تصر على البقاء، رغم الخراب، رغم الخوف، رغم الإبادة.

الزراعة... الجذور التي لا تقتلع

عنصر آخر أصر عليه الأطفال هو «الزراعة». لم تكن مزرعة كبيرة، ولا شجرة محددة، بل مجموعة خيوط خضراء وأشكال ترابية وأوراق ملونة، وُضعت بأساليب حسية على جوانب اللوحة. أحد الأطفال قال: «لو أتت السفينة، سأعطيهم حبة بندورة من مزرعتنا.» كان هذا التعبير أقوى من كل الشعارات. في لحظة حرب، وتدمير، وتجريف، وحصار، ما زال الأطفال يربطون الأمل بالأرض، ويرون في الزراعة فعلاً للبقاء، ووسيلة للسلام.

الزراعة في غزة لا تُدرّس فقط في المدارس، بل تُمارس في الأزقة. على الأسطح، في البيوت، وتورثت من الجدات إلى الأحفاد. لهذا لم تكن الزراعة عنصراً عرضياً في اللوحة، بل عمقاً رمزياً يعكس التمسك بالجذور مهما كانت الظروف.

ختام اللوحة: من غزة إلى العالم

لم تكن اللوحة في النهاية فقط مادة بصرية جميلة. كانت عملاً مشتركاً يعبر فيه الأطفال عن أحلامهم، عن حاجتهم للتواصل مع العالم، عن كسر العزلة، والقول: نحن نرسم. نحن نفكر. نحن نحلم. وقد جاءت العبارة الختامية في اللوحة، كما قررها الأطفال جماعياً: «من أطفال غزة... إلى العالم.»

عبارة بسيطة، لكنها تختصر كل شيء. وكأن هذه السفينة الصغيرة، «مادلين»، لا تحمل فقط مساعدات طبية أو نشطاء، بل تحمل قلوباً صغيرة تنتظر. تنتظر الاعتراف، الانتقال من صورة الضحية إلى فاعلين في المستقبل. تنتظر أن تنتهي الأسلاك الشائكة في البحر، وأن تعود الشواطئ أماكن للعب، لا للانتظار.

«من بيت لبيت»: حين تعبر الكتب الخيام وتعيد الأمل إلى العائلات في غزة

في ظل واقع إنساني قاس يعيشه أطفال قطاع غزة، حيث الحرب والنزوح والحرمان من أدنى مقومات الحياة الآمنة، تأتي مبادرة «من بيت لبيت» كواحدة من المبادرات المضيئة التي أطلقتها مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي ضمن مشروع «مساحات آمنة»، لتعزز من خلالها ثقافة التعلم والقراءة، وتعيد ترميم ما هدمته الحرب من روابط مجتمعية وعائلية.

تغيّر شيئاً؟ بدأت الأجوبة ترتبك بين الصمت والحيرة، ثم انطلقت المخيلة. أحد الأطفال قال: «لو وصلت السفينة، سأرسل معها رسالة تقول لهم أن غزة ليست سجنًا، نحن نحب أن نعيش.» آخر قالت: «أريد أن يحملوا معنا ألوانًا، نرسم بها السماء من جديد.»

تحوّل الحديث إلى عمل جماعي، ومنه إلى تخيل مشهدي: كيف نرسم مادلين؟ ماذا يوجد حولها؟ من يحرسها؟ أين تتجه؟ هكذا، وُلدت العناصر الفنية واحدة تلو الأخرى من عقول الأطفال، لا من توجيهات الميسرين.

السمة التي تحرس القارب

أول رمز تشكل في مخيلة الأطفال كان «السمة». لم تكن مجرد كائن بحري في المشهد، بل أصبحت شخصية بحد ذاتها. قالت طفلة في المجموعة: «السمة لا تهرب من السفينة، إنها معها، تحميها.» في غزة، تعني السمة أشياء كثيرة: الرزق، الحياة، البحر، العبور، والخطر. في هذه اللوحة، كانت السمة أقرب إلى الحارس، إلى الأم التي تسبح بجانب مادلين وتهمس للبحر: لا تأذِ قارب الأمل، فهو يحمل لأطفال غزة شيئاً يشبه الحرية.

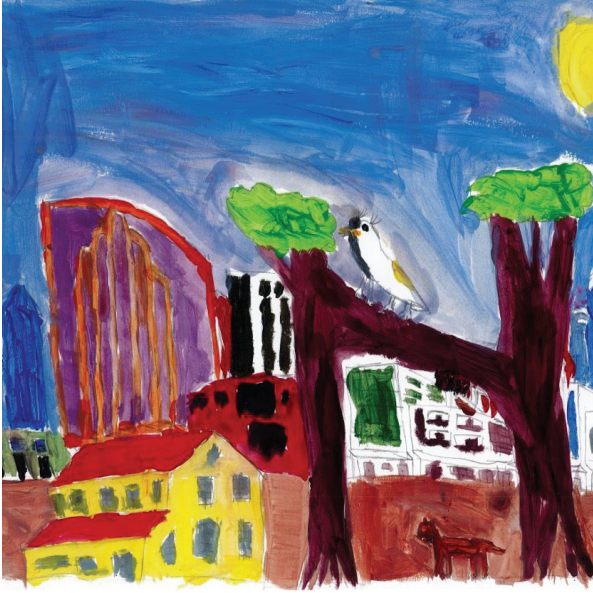
رُسمت السمة بأقمشة ملونة، عيونها من أزرار قديمة، وزعانفها من خيوط الغزل، بدت ككائن خرافي، أقرب إلى حلم يسبح بجانب القارب من أن تكون سمة حقيقية. الفن هنا لم يكن تشكيليًا فقط، بل سردياً، كل زرّ يروي حكاية، وكل خط خيط يرسم انتماءً خفياً للماء والنجاة.

البيت الذي لا يرحل

في زاوية اللوحة، قرر الأطفال أن يرسموا «البيت الفلسطيني». رغم الحديث عن البحر والسفر والانفتاح، ظلّ البيت حاضرًا كرمز للمكان، للثبات، للأرض. لم يكن بيتاً فخماً أو مستقرًا، بل بيتاً متواضعاً بألوانه، لكنه مفعم بالحياة: نوافذ مفتوحة، أشجار إلى جانبه، وباب عريض كأنه يقول: «نحن هنا، وسنبقى هنا.»

هكذا يظهر التناقض الجميل في الخيال الطفولي: نريد أن نبحر، نعم. نريد أن نكسر الحصار، نعم. لكننا لا نغادر بيوتنا، لا نودّع أرضنا، نرسل من غزة إلى العالم، ولا نهجر منها. في هذه النقطة تحديداً، تتكثف رمزية اللوحة: لا تناقض بين الانتماء للبيت، والرغبة بالتححرر والانفتاح، كما لا تناقض بين البحر والخيمة، أو بين الطين والسماء.

شهادات من ميدان الإبادة

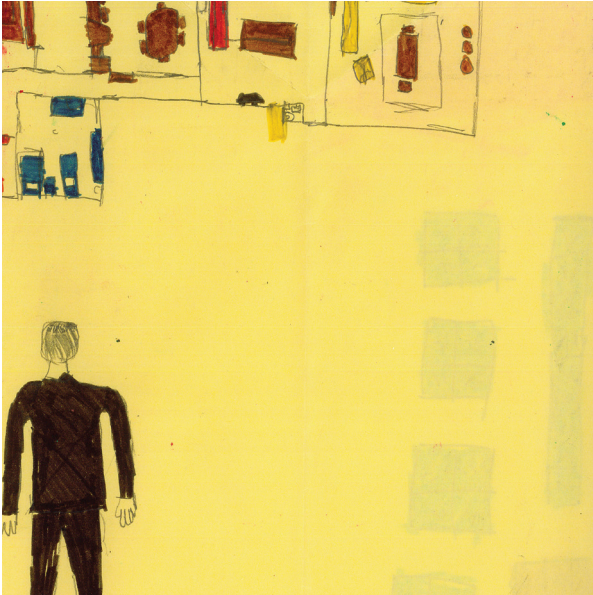


تهدف الحملة إلى ترسيخ الشعور بالأمان والانتماء في نفوس الأطفال، من خلال استعادة الروابط بين الطفل وأسرته، عبر زيارات بيتية وخيامية تفتح المجال للحوار، والاستماع، والتعبير المشترك. فعلى مدار أسابيع طويلة، توجه فريق المؤسسة إلى بيوت العائلات ومخيمات الإيواء، حاملاً كتبه وأدواته الفنية، وأذنه الصاغية لمشاعر الناس.

واستطاعت الحملة الوصول إلى 1007 أسر فلسطينية متوزعة في مختلف أنحاء قطاع غزة، في مناطق تعاني من النزوح المتكرر والتدمير، واستهدفت بشكل مباشر 8748 من الإناث الأطفال، و5448 من الذكور، بالإضافة إلى 4910 من الأهالي، من ضمنهم 1996 من الأمهات و2914 من الآباء. هذه الأرقام تعكس ليس فقط حجم التدخل، بل عمق العلاقة التي سعت تامر لبنائها مع هذه المجتمعات المهمشة.

عن الكتاب والمكتبة وخطواتي المتسارعة

أسماء أبو منسي



في كل كتاب أو مجلد هنا تعيش روح ما، روح من ألفه وأرواح من عاشوا وحلموا بفضله. وفي كل مرة يغير الكتاب صاحبه أو تلمس نظرات جديدة صفحاته، تكتسب الروح قوة إضافية- كارلوس زافون / رواية «ظل الريح» أقف على ناصية الطريق، ألوح بيدي إلى السيارات



بدأت أتعرّف على بعض ملامح الطريق والمباني. ها هي جمعية إعمار للتنمية والتأهيل، وصلت بالقرب منها. بدأ قلبي يهبط ويصعد متسارعاً في نبضه، أحسست به وكدت أن أمسكه بيدي. جبل من الرمال والحجارة أغلق الباب. فعلها الاحتلال. ولأنني أحفظ المكان جيداً، ذهبت من الباب الخلفي للمبنى. صعدت الدرجة الأولى من السلم وقلبي ما زال يخفق. شعرتُ به يهوي في هاوية سحيقة. استرجعت ذكريات وتفاصيل العمل في هذا المكان. الجدران مليئة بالكتابات باللغة العبرية، خطط ويوميات جنود الاحتلال، ورسومات وحتى مواعيد غرامية كتبت على جدران المبنى الداخلية. على ما يبدو، كان المكان ملاذاً آمناً لهم، بعدما كان ملاذاً آمناً لنا أيضاً.

وصلت إلى الطابق الثاني، إلى نواة المكتبة التي عملت مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي على تأسيسها في المكان قبل الحرب. ها هي قصة «المارد» ملقاة على الأرض. أول قصة وجدتها: «المارد». أيكون المارد في هذه القصة، ولأول مرة، قد تحول إلى مارد لا يخيف الصغار، بل وقف إلى جانبهم هذه المرة ليخيف الجنود؟ لذا بقيت هذه القصة موجودة؟ تشهد على شيء ما حدث! القصص كلها على الأرض هنا وهناك. الغبار والدمار والبارود حولها إلى لون رمادي بائس. نفضت الغبار عن القصص وجمعتها: «المارد»، «أحلى الأغاني»، «شمس»، «الوقت». حضنت هذه القصص لأخفف عنها ألم الترك والمعاناة والخوف الذي شهدته. كأن القصص ستكتب قصصاً جديدة لما شاهدته. أجل، هذه القصة التي ما زالت على قيد الحياة ستكون شاهدة على ما فعله الاحتلال في المباني الثقافية والمكتبات.

فالكتب أدوات السلام والتفاهم الإنساني، لذا يخشى العدو دائماً منها، فيعمل بشكل همجي وبربري على تدمير كل أداة من أدوات السلام، وأهمها المكتبات والكتب. فعبر التاريخ، لم تدمر الحروب المدن وتحصد الأرواح فقط، بل أدت إلى قتل الكتب والمكتبات والمراكز الثقافية. ولأن مدينة خانينونس تحتوي على الكثير من المكتبات المجتمعية والمراكز الثقافية، دمرها الاحتلال. تركت مكتبة إعمار خلفي وودعتها، على أمل العودة إليها مرة أخرى.

وصلت إلى مكتبة بلدية خانينونس بعد أن قصدت شارع المخيم وأنا أشم رائحة الموت والدمار والدم. يا إلهي،

والعربات، أو أي وسيلة تقل جسدي المثقل، وخطواتي المتسارعة، وروحي المتلهفة لرؤية المدينة التي طالما أحببتها وأحببت العمل فيها. منذ السابع من أكتوبر لعام 2023، لم أخط خطوة واحدة تجاه هذه المدينة لأنها أصيبت بالحرب المسعورة، مثل كل قطاع غزة. كنت دائماً أفكر: ماذا حل بهذه المدينة؟ ماذا فعلت الحرب بها؟ أي جزء أكلت الحرب منه؟ وأي شارع لم يعد موجوداً؟ وأي البيوت تغيرت ملامحها؟ أم أن المدينة كلها تغيرت؟

في 27 أبريل لعام 2024، تجرأت وذهبت إلى مدينة خانينونس. قصدت طريق البحر، البحر الذي بات غير مرئي، فبحر الخيام أصبح أكبر من البحر المائي، وهذه ليست مبالغة من أي نوع. وصلت إلى شارع روني (أحد شوارع المدينة) في مواصي خانينونس. سألت رجلاً غربياً يقف على باب خيمته عن كيفية الوصول إلى طريق يوصلني إلى خانينونس البلد. وصف لي الرجل الطريق. أشعرتني ذلك التيه الحزين في هذه المدينة بالغضب، بعدما كنت أصف للغرباء شوارع المدينة وكيف يذهبون إلى أي مكان يريدونه. ركبت عربة حمار - وسيلة نقل أخرى - وأتأمل ماذا حل بهذه المدينة. الناس تائهة مثلي تماماً، الوجوه تشبه بعضها، ضجيج المأساة هو الصوت المسيطر في الطرقات. تجمع خيام هنا، وبسطات معلبات هناك، وطوابير المياه، الطعام، الحمام، الخبز... إلخ. كم طابور عدت خلال المسافة الأولى؟ لا أعلم، فحياتنا في الحرب أصبحت عبارة عن طابور للبقاء على قيد الحياة. في المدن البعيدة توجد أيضاً طوابير، ولكنها طوابير حياة، كطابور لقطع تذكرة فيلم سينما، أو طابور لصعود الطائرة، أو طابور للذهاب في رحلة تزلج مثلاً. على أي حال، كلها طوابير، ولكن بأماكن وظروف مختلفة (هكذا فكرت).

عند مفترق جامعة الأقصى بخانينونس، نزلت من عربة الحمار لاستقل وسيلة نقل ثالثة للوصول إلى هدفي. هذه المرة كنت أكثر حظاً، إذ وجدت سيارة. كانت أحاديث الناس تدور حول الحرب، وماذا فعلت بنا، وعن الموت، وعن النجاة، وعن... وعن... «عطيك العافية، لو سمحت يا عم، هذا هو مفترق الضهرة؟» «إيه يا عم، هو هذا». كانت الصدمة. أجل، لم أعرف هذا المفترق الذي كنت أحفظه عن ظهر قلب سابقاً. مشيت ومشيت في الشارع، أنظر إلى جانبي الطريق. البيوت لم تعد كما كانت، بعضها شامخ رغم الدمار الكبير بها، والبعض منها دفن تحت الأرض، وبعضها الآخر أصبح كومة من الحجارة.

خطر حقيقي من حرماننا نحن كجماعة بشرية كاملة من حقها بالوجود. فالكتب والمكتبات تصون الذاكرة، وهي شهادات وأدلة على الحق والتاريخ والأثر. فالحرب أبادت البشر والكتب. إبادة البشر وإبادة الكتب كلاهما ينتج الآخر. وحرقت الكتب وتدمير المكتبات، كما فعل الاحتلال، يعني انقطاع الحكاية السردية سواء الفردية أو الجماعية لنا. فواجهت هذه الكتب مصيرها كالبشر تماماً بتعرضها للإبادة والقتل، ولا زالت تحاول، كما نفع، أن تظل موجودة، علقم مر في حلق المحتل.

ورغم أنه في أوقات الحروب يصبح التراث الثقافي ضحية الاضطرابات والتدمير والإهمال، إلا أننا شهدنا في أشد الأوقات تدميرًا، العديد من البسطات لبيع الكتب أو إعارتها. فأنا أمتلك مجموعة من الكتب والقصص المختلفة في بيتي، بيتي الذي أوى الكثير من النازحين من مختلف الأعمار. قمت بعمل جدول إعاره لهذه الكتب للفتيان والفتيات، أتناقش معهم فيما قرأوه. تقول لي تسنيم: «الحمد لله أنني وجدت كتبًا حتى أهرب بالقراءة من كل ما يحدث. في الكتب يوجد الأمل والحياة والوجع، لكنه وجع أتعاطف معه، وليس وجعًا وقهراً أعيشه غصبًا عني، كما هو حالنا في الحرب.»

تسنيم وسلمى ومحمد ونغم وسمية تسابقوا في الاستعارة وقراءة الكتب، لعلها تكون طريق نجاة لهم، وحتى لا يفقدوا قدرتهم على التعبير عن أنفسهم وعلى تدوين ما يحدث، ليكون وجودهم جزءًا من هذا العالم. هل حقًا هؤلاء الفتيان نجوا من آلة الحرب بفعل الكتب؟ هل حقًا هم جزء من هذا العالم الذي لا يعرف عنهم شيئًا؟

الحروب تعطل الذاكرة وتدمي القلب، وتطفئ الروح. تحاول أن تقضي على كل شيء من جذوره، وتحاول أن تسكت كل صوت يحاول سرد الحكاية. فالمكتبات تحتفظ بذاكرتنا وتاريخنا وجذورنا. فأمانة المكتبة العامة في بلدية رفح، ميسون شعت، والتي عرفت المكتبة من خلالها، تقول لي: «والله يا أسماء، كل كتاب في المكتبة أنا بعرفته منيح. كل الكتب كأنها أولادي، أنا رببتهم زي أولادي.» تقول لي وكلها حسرة ووجع على فقدانها للمكتبة التي لا تعرف عنها شيئًا، وتحاول أن تتحسس أخبارًا عن أولادها الكتب، كما وصفتها ميسون، من هنا وهناك. أيعقل أن هذا تأثير الكتب على من أحبها وكان قريبًا منها إلى هذا الحد؟

المبنى موجود، الأبواب مغلقة، المكان فوضوي من الداخل. وجدت شابًا مفتوحًا فتسللتُ منه إلى المكتبة. لوهلة شعرتُ أن ما أفعله مشهد من فيلم ما. الكتب متناثرة في كل مكان. عاد قلبي إلى تسارعه مجددًا، أمسكت به مرة أخرى ليهدأ. هذه المكتبة (مكتبة بلدية خانيونس) قبل الحرب كانت تحضن تنوعًا ثقافيًا واسعًا، من محمود درويش إلى مريد البرغوثي، إلى «أحدب نوتردام» لفكتور هوجو، مرورًا بنسخ كثيرة من أطروحات الدكتوراة والماجستير كمراجع مهمة للعديد من الرواد. فالمكتبة كانت بالنسبة لنا تنظم المعرفة بطريقة جميلة ومنظمة، وتحافظ على استمرار الهوية القومية والفردية، وتدعم الأيديولوجيات الاجتماعية المختلفة.

حين وصلت إلى قسم الطفل في المكتبة، كانت القصص والحكايات صامدة على الرفوف الخشبية، فوقها قطع من قرميد السقف الذي أصيب بقذيفة غير عشوائية أسقطته فوق الكتب، وبعضها ملقى على الأرض. نفضت الغبار والرماد عن القصص والحكايات. فكان «السيد سيرافين وأحلامه» ينتظر أحدًا من الرواد لينقذه مع تلك الأحلام. يا سيد سيرافين، ماذا تفعل الحرب بالأحلام؟ وقصة «شمس» التي تهشم زجاج جسمها إلى آلاف القطع وتناثرت في أرجاء المكتبة. وانكسرت قلوب كل القصص النابضة في المكتبة، وتوقفت عن الحياة بسبب همجية المحتل. متيقنة أنها ستعود للحياة من جديد. تنقلت بين القصص، كنت حريصة على ألا تدوس قدمي نبتًا من نبضات الكتب، خوفًا من أن يصيبه الوجع مرة أخرى. جمعت بعض العناوين معي، حملتهم كأني أحاول أن أرّم جزءًا من روحي وأعيد شيئًا من الحياة لها سابقًا.

«مختار أبو ذنين كبار»، «ماما تحلق»، «قلبي يشبه القمر»، «عمر وهاها»، «رحلة بصرية»، «دانتيلا»، «العمة زيون وشجرة الزيتون»، والعديد من العناوين.

في قسم الكتب التاريخية والمراجع والوثائق العامة، جلست هناك أعيد التاريخ وكيف سيكتب فيما بعد. أفكر في كيف أن الاحتلال يمحو الذاكرة من أجل إعادة تكوين هويته كمحتل، وكيف يقوم بتدمير كل المواد ذات الارتباط بالذاكرة، من مركز رشاد الشوا بمكتبته «تماري صباغ»، إلى مكتبة بلدية غزة التي تحتوي على تاريخ المدينة العتيق، إلى مكتبة المسجد العمري، إلى كل المراكز الثقافية والأثرية التي أبادها الاحتلال في الحرب. فالإبادة الجماعية لتلك المكتبات

كيف أتعافى إلى حدٍ ما؟

«بدكيش تعملي كمان مسرحية؟ بدكيش تعيطي؟». يحب الصغار أن أبكي، وأنا أحب أن أبكي.

جيهان أبو لاشين



ينجح الأمر في كل مرة نرفع فيها صوت الموسيقى، حيث يبدأ الأطفال بالظهور من الخيام والزقاق، ومن أماكن بعيدة، ويركضون في اتجاهنا. غالباً ما يلحق بنا الأطفال ويسألون ببهجة عالية: «بدكم تلاعبونا؟». أحياناً أهز رأسي موافقاً، وأحياناً أمازحهم قائلة: «لا، أنتم بدكم تلاعبونا»، فيبتسمون ابتسامات جميلة. وأنا، الواقعة في عشق الابتسامات الصغيرة، أبدأ بالتعافي منذ تلك اللحظة. أتعافى (على الأقل خلال الفترة الزمنية التي أفضيها معهم)، أتعافى (على الأقل من وجع الطريق الطويلة التي سلكتها لأصل إليهم).

تتسلل الموسيقى فعلياً إلى قلوب الأطفال. أرى ذلك بوضوح عندما يبدؤون بالركض تجاهنا والتعلق حولنا لطرحة أسئلة كثيرة، منها: «أنا بدي أعبي مي»، «بدكم تعطونا هدايا؟». فأجيب بلطف: «أحنا بنعطي لعب وفرح وثقافة». فيبتسم الصغار ويقبلون فوراً بالصفقة، فيتركون عبء الحياة اليومية جانباً ويبدوون بالانسجام معنا.

للموسيقى فعل السحر في خيام مليئة بالقسوة، حيث تبدأ أجساد الصغار بالإضاءة حتى تشع عيونهم بالكامل، وتتسع ابتساماتهم وتمتد لترسم ابتسامة كاملة كبيرة بحجم

حملت في يدي مجموعة من الكتب التي أخذتها من المكتبة. جلست على عتبات المكتبة أنظر إلى السماء بصمت، وأفكر في كيف لهذا كله أن يحدث؟ نهضت ومشيت بخطوات متقلة جداً، أجز جسدي بصعوبة، قدمي لم تعد تحملني. قلبي كأنه لا ينبض، ورأسي يدور ويدور. صوت الطائرات يعلو أكثر. عدت من حيث أتيت، ولا تزال تلك الرحلة ترافقني.

ربما يكون باستطاعتهم أن يقتلوا ويدمروا ويحرقوا معالم هذه البلاد، لكنّ الكتب ستبقى هي الشاهد الأكبر والأقدم على ذاكرة فلسطين وذاكرة العالم، لأنها هي من تعطي للعالم معنى وجوده.

فيسهم اليومين التاليين بإسقاط المزيد منه. يسقط تعبي عندما أرى تعبهم الذي يسقط. ولأنني أعرف أن تعبهم كبير جداً، أوصي الأهل بأن يقوموا بهذا الدور أيضاً -إسقاط التعب- وأن لا ينتظروا مؤسسة ما لتسقط تعب أطفالهم. لا يتوقف التعب عن اعتلاء أكتاف الجميع. اعتادت أكتاف الصغار حمل الماء وطعام التكيات وجمع الحطب.

قليلاً ما يستجيب الأهل لفكرة اللعب مع أطفالهم لإسقاط التعب، بحجة: «نحن متعبون جداً». ولكنني لا أتوقف عن طلب ذلك. من يدري، ربما طفل تم إسقاط تعبته يصبح يوماً ما قائداً قادراً على إسقاط تعب شعب بأكمله.

بعد أنشطة الموسيقى، تقوم زميلتي بتنفيذ قصة مغناة مع الأطفال، تضبط فيها الصوت مع الحركة والإيقاع، ويكرر من خلفها الأطفال بتواثم رائع. يستمتع الصغار بالقصص المغناة، وأستمع أنا بحجم استمتاعهم جميعاً.

ثم ننتقل للنشاط الأساسي الإرشادي (والذي نقله للأطفال من خلال اسكتش مسرحي صغير أو لعب أدوار). فأكون طفلة صغيرة ضائعة تتعلم كيف تحفظ بياناتها الشخصية وتغنيها. وفي يوم آخر، أكون طفلة مشاغبة ترغب بالابتعاد عن خيمتها والعثور على الدهشة في مكان ما، فتتعلم كيف تبتعد عن الأجسام المشبوهة وكيف تتصرف حيال ذلك. أما في اليوم الثالث، فأقوم بتيسير ألعاب التلي ماتش والتصفيق، وأحس بعدوى الحماسة والبهجة التي تنطلق من أرواحهم.

لا قوانين في لعب الأدوار إلا مراعاة المرحلة العمرية للأطفال والتلاقي مع اهتماماتهم ولغتهم وإدراكهم وبهجتهم. بلا تخطيط، أبكي أثناء لعب دور الطفلة. أبكي لأنني ضائعة تماماً مثلهم في عالم فوضوي قاسٍ لا ملامح ثابتة له. ضائعة، والحرب غولة تلاحقني وتلاحقهم (لا أقول ذلك للأطفال). ولكنني أبكي أيضاً لأنني طفلة مقهورة تريد الخروج من الخيمة. أبكي، ويضحك الصغار.

تجتمع في أشياء كثيرة أثناء أدائي للدور، فأصير حقيقية تماماً (طفلة صغيرة تائهة، خائفة، تحاول النجاة). طفلة اعتادت كل هذا الخوف منذ الانتفاضة الأولى، عندما ترعرعت بقلق من خطر التجوال ومداهمات الاحتلال للبيوت، والخوف من العملاء والخونة، والتعامل مع كل المحاذير التي حبست الطفلة -أنا في داخلي- حتى لحظة أدائي لدور الطفلة. فتضيء روعي وتبدأ بالنمو، ويكبر ظلها ليحجب الشمس من فوق رؤوس الأطفال.

يبدأ خوفي بالتلاشي في كل مرة أنظاها فيها أنني أقتر

الدائرة التي يتحلون بها. داخل الدائرة، تتوقف الحرب عندما تجتمع الموسيقى مع الحب، الذي يبدأ بالانعقاد بيننا -نحن الميسرون- وبين الأطفال في اللحظة الأولى التي تلتقي فيها عيوننا بعيونهم. فيدركون فوراً أننا جزء لئ من الحياة التي تقسو عليهم بشدة من خلال كل ما يحيط بهم من أشياء وأشخاص، حتى من قبل الأهل.

للحرب سحره العظيم، حتى على قلبي أنا، قلبي المتعب من النزوح والبعد وظروف العمل. تنتقل شرارة الحب بيني وبين الأطفال، فتضغط على زر الحياة في روعي، تضيئها، وأبدأ مع الأطفال بحياكة حلم بلا حرب، كأننا نصحو من الحرب تماماً. نتمسك بالحلم قدر الإمكان ونتجاهل الطائرات المسيرة التي تحوم في سمائنا.

في الدائرة، نتجمع. أيادهم غير المضبوطة الإيقاع تبدأ بالانضباط إلى حد ما، فيعلو صوت الجماعة على صوت الفوضى. حركاتهم غير المتوازنة تبدأ بالتوازن إلى حد ما، فيعلو صوت النظام فوق صوت الفوضى. بسماتهم الباهتة تبدأ بالتلون لتصير حقيقية، ويبدو كل شيء متماوجاً بين ما جئنا لغرسه من روح وما عفرته الحرب في وجوههم من فوضى. نتغلب في أوقات كثيرة على الفوضى -إلى حد ما-، يعيقنا اعتياد الأطفال على طوابير يومية فوضوية وبربرية للحصول على الماء وطعام التكيات والكوبونات وغيرها.

أتعافى كلما لاحظت الفرق وقرأت التغيير في إيقاعات الأيدي والأقدام، ولاحظت ارتفاع التناغم في لغة الحوار بيننا وبينهم. في لحظات كثيرة، أشعر أن الأمر يتعدى حلقة لعب وترفيه، الأمر هو مواجهة كبرى بين ما تصنعه الحرب وما يستحقه الصغار. والكبار أيضاً الذين يقتربون كثيراً ويبتهجون بما نقدمه للصغار.

بعد موسيقى التجميع، ننظم بعض الأمور مع الأطفال لنحظى باهتمامهم وتركيزهم قدر الإمكان. نخبرهم من نحن، ولماذا نحن هنا. وجرت العادة أن يستبق الأطفال الإجابة قائلين: «أنتم اللي بتفروحونا». ونخبرهم قليلاً عن مؤسسة «تامر»، فيما نحفظ بباقي الكلام للقاءات التراكمية، خشية أن يأخذ الحديث وقت اللعب. ونحن وهم الذين نجتمع عادة بلا ظل، نحرص على تكثيف الأنشطة كما هو مخطط لها قبل أن تبدأ حرارة الشمس وأشعتها بإرهاقهم.

نعود لتشغيل الموسيقى، فيتحرك الصغار مع إيقاعاتها ويتفافزون، فيسقط عن كواهلهم تعب اليوم والأمس وربما أيام أخرى. تبقيهم المتراكم جداً لا يسقط بلقاء واحد،

فأبدأ بصنع دائرتي الخاصة (أقدرهم، يقدرونني، يقدرون أنفسهم، أقدر نفسي على قيامي بذلك) وأقاوم الاحتلال بطريقتي الخاصة. تقديرنا لذواتنا رقي لا يشبه بربرية الحرب. أتعافى عندما أشعر بأنني أقدم شكلاً غير مشوه للصوص. الصمود هو أن لا نشعر بالإذلال، وأن نشعر باستمرار أننا نستحق الحياة - الحياة التي سنصنعها لأنفسنا يوماً ما.

في قصة «ليلي تغادر البيت»، نتحدث كثيراً عن حكاياتنا في النزوح. وأتعمد أن أتوقف بالقصة عند عودة ليلي لمنزلها في المرة الأولى، وأن أعلن نهاية الحرب. نشعر أنا والأطفال بلحظة انتصار على الواقع. نصنع خيالاً خاصاً بنا، ونوجه دفعة الحوار حول حماية أنفسنا من مخلفات الحروب، بما يشمل الأجسام المتفجرة وغير المتفجرة، والأفكار المغلومة والمغلوبة أيضاً. وإن سمح لنا الوقت، نبدأ بالتخطيط لإعمار حياتنا بعد الحرب.

في يوم البيانات الشخصية، نؤكد على قصة «من أين جاء اسمي»، وينضم إلينا الأهل لتأكيد الرواية والحديث عن تجاربهم في تسمية أطفالهم. وأنا أستمتع بتذكير الأطفال بأنهم أمراء وأميرات صغار يستحقون كل الحب، لأؤكد على كينونتهم وهويتهم، وننتصر انتصاراً جديداً على الذل الذي تقدمه الحياة.

كذلك نفعل في اليوم الذي نتحدث فيه عن النظافة، بعد مناقشة قصة «زلوتة»، وعن مسؤوليتنا تجاه نظافتنا الشخصية والنظافة العامة، وتجاه جمالنا وكونهم أمراء وأميرات (وأكون أنا والأم في المكان - الملكات). أتعافى أكثر كلما تعافوا، كلما اشتعلت شرارة الحياة في عيونهم.

أما اليوم الرابع في اللقاءات التراكمية، حيث اعتدت قراءة قصة «صياد البصة»، والتي تأخذنا للحديث عن التعاطف والمشاركة وعن الأمنيات. أستمتع كثيراً مع الأطفال عندما أكتشف أن: كل الأطفال يعرفون أصل الأشياء وصحيحها من سيئها. كل الأطفال على الإطلاق يتعاطفون ويحبون التعاون والمشاركة والصفح والسلام والمحبة. ولكنها الحياة تسرقهم.

أتعافى لأن لقاءاتنا مع الأطفال عبارة عن فرص. يحصل كل طفل منهم على فرصة في حوار جيد يقدره، أذن تنصت إليه، ونقاش نقي يشبه روحه النقية. هذا العالم - المليء باللاإنسانية - القاهر الظالم، عبء كبير على قلوب صغيرة تعرف الصح جيداً ولكنها لا تجده حولها، فيربكها.

أتعافى قليلاً كلما كنت جزءاً من الفرصة التي يحصل عليها هؤلاء الصغار ليكونوا كما يليق بهم.

من جسم متفجر، فيقول الأطفال بحب وتحذير: «لا لا لا، لا تقربي، راح ينفجر فيكي». فأتهازل (وأنا أتعافى كثيراً بالتهابل) وأقول: «هاي قنبلة حلوة كتير، بدي ألعب فيها ببيجي». فيقول الصغار بجدية وهم مبتسمون: «لا لا، راح تنفجر فيكي». ثم أتمادى (بالهبل) وأقول: «واااا، هاد صاروخ مش متفجر، عادي مش خطر، راح اركب عليه وأعمله حمار، وأقول: حاااا شيبيع ظهرك يخو». فيضحك الصغار ويقولون: «لا لا، ممنوع، راح ينفجر فيكي». وهكذا حتى يتعلم الصغار ما هي مخلفات الحرب.

ثم يجдени والدي (أحد زملائي المتورطين معي في ذلك) ويقوم بالاتصال بالدفاع المدني، لنورط زميلاً آخر. تنورط جميعاً في صناعة قالب مضحك من الدراما يفرح به الصغار ويتعلمون ما جئنا لتعلمهم إياه.

من أكثر الأسئلة الشائعة التي أسمعها خلال دورتي في المخيم بعد ذلك: «بدكيش عملي كمان مسرحية؟ بدكيش تعيطي؟». يحب الصغار أن أبكي، وأنا أحب أن أبكي. ويبدو أن بكاء الطفلة الصغيرة في الاسكتش يجرح دمل الكبت، فيسيل مني ومنهم الكثير من القلق أثناء ذلك.

كذلك الحال عندما أقوم بدور طفلة تائهة ليتعلم الأطفال كيف يحفظون بياناتهم الشخصية. أتعافى بشكل أو بآخر عندما أجد أمي في نهاية الاسكتش. أتعافى عندما أسمع تهديدات الأطفال فرحين بعودتي للبيت.

بعد الأيام الترفيهية الثلاث، ننقل للأيام التراكمية في العمل مع الأطفال. وهنا يكون العمل مع مجموعة أقل وثابتة إلى حد ما. تبدأ معها رحلة تعافي من جديد، حيث أننا (في اللقاءات التراكمية) نزيد من حصة الأفراد في التعبير والتفاعل بشكل شخصي. وفي كل لقاء من اللقاءات الأربعة، نتساءل كثيراً ونربط أنفسنا كثيراً بالكتب المناقشة وشخصياتها، ونعلم سوياً كثيراً.

وأنا أتعلم كيف أتعافى مثلهم. فكما قلت سابقاً، للحب سحره في التعافي.

قاعدتي الأساسية في العمل مع الأطفال، بالإضافة لحبي الشديد لإظهار حبي (وأنا أستمتع فعلياً بإظهار ذلك الحب)، هي إظهار التقدير. أنا أقدر وأحترم كل طفل أتعامل معه. أثق تماماً أن تقدير الذات أهم ما يمكن أن أساعدهم على تطويره. تقدم الحياة الآن الكثير من الذل للأطفال. الذل قذر بقدر الحرب. الإذلال لن يصنع قادة ولا مؤثرين ولا أشخاصاً قادرة على التغيير للأفضل. أشعر بالإذلال الذي ترضه الحرب مثلهم.

كيف يكتب الصغار في زمن الحرب؟

هناء أحمد



مدته خمس دقائق، حتى يبدوون بقراءة ما كتبوه الليلة الماضية.. فيتلاشى مثل فقاعة انفجرت في الهواء.

من أين تأتي تلك الأصوات؟ طريقتهم في نطق الحروف؟ كيف أسلم الأوراق للصغار بيضاء، تعود مليئة حتى آخرها بكلمات، ورسومات، أحلام ومخاوف، صور عائلية؟ البيت الذي يحتل معظم اللوحة، يجعلونه كبيراً بشبابيك واسعة، وباب لا يُغلق. أتوه في تلك البيوت الملونة، والبيوت المرسومة بقلم الرصاص. أتلّق بها، أودّ أن أزورها، أشم رائحتها. أقول لهم: «أنا أحب البيت، البيت هي كلمتي المفضلة يا أولاد». يرسمون شكلاً متخيلاً لجسر العودة، لأنهم بالتأكيد يظنون أن هناك جسراً ما. هكذا يفهمون معنى أن تتقطع الطرق بين الشمال والجنوب. يرسمون الجسر لي، على الضفة التي تنتظرهم هناك بيوت وأمل وأشجار عملاقة لا تنبت في غزة، لكنها ضرورية للأحلام، ضرورية لمشهد العودة. يكتبون عبارة «غزة ترحب بكم» بخطوط عريضة، ويتحدثون عن ذلك اليوم كثيراً، تكون فيه السماء صافية، والشمس بديعة مرسومة بإتقان، أشعتها تغمر الأرض بالدفء.

ما شكل اليوم التالي للحرب يا أولاد؟ ما شكل الحياة في غزة؟ ما شكل المدرسة؟ يتساءلون: «هل من الممكن أن نملك عصا سحرية بحركة ماهرة تعيد كل البيوت إلى مكانها؟ هل تمتد يدٌ إلى البيت تعيدنا إليه، أو تأتي بالبيت إلى هنا؟». ماذا يكتب الصغار في الحرب؟.. تنف التفاصيل التي لا تمحى، كأن تخبرني واحدة من البنات في إيوان المناصرة أن السماء كانت حمراء بشكل جميل يوم نزوحها، وأنها تأملتها لدقائق صامتة وهي تجرّ قدميها ناحية النجاة. كيف ينتبه النازح الذي نجا من قبضة الموت إلى سماء لونها أحمر جميل؟ كيف استطاعت أن تتذكر شرفة البيت في الطابق الخامس الذي تطل على بحر غزة، وتقول لي: «هل تتخيلين كيف سيكون شكلها من البحر؟». أستمع لسؤالها مذهولاً، كيف يمتلكون هذه القدرة على التقاط مشهدٍ رائعٍ في يومٍ حزين؟

ماذا يفهمون عن الكتابة؟ كيف فقدوا دفتر التعبير فجأة؟ وكيف صارت هذه النصوص التي يكتبونها على بساطتها وعناء ما فيها مادةً للتاريخ لفترةٍ عصيبةٍ تمرّ بها غزة؟ هل يعرف أولئك الصغار أنهم بطريقةٍ غير مباشرة يكتبون تاريخ غزة؟ ويشكلون جزءاً من معجمها الجديد؟ وأنهم الأولاد الذين يحبّ أن يراهم غسان كنفاني ويكتب عنهم؟ ربما لو كان هنا لقال: «هؤلاء الأولاد هم الذين من

أحمل حقيبةً مملئةً بالأوراق والقصاصات والرسومات، أخرج بها صباحاً إلى العمل. تزداد الحقيبة ثقلاً مع مرور الوقت، حتى أنني صرّتُ أشعر بألمٍ يلسعني في كتفي، وفي قلبي ينتشر عميقاً في داخلي. أعبّر الشوارع، وركام المدينة يرافقني. أستمر في المشي على المدينة تصبح خلفي، وأتخفف من هذه القصص التي أراها، والقصص التي أحملها. لكنها أمامي مباشرة، تقف في مواجهتي تحاول أن تحرضني على الكتابة. أهرب، أغمض عيني، تتراكم القصص على قلبي، أصبح تحت وطأتها هشة، ضئيلة، وتكبر في الرغبة في الهرب مجدداً، في الركض المستمر بلا توقف حتى تغيب المدينة بكل تفاصيلها عن مخيلتي. أهرب، والحقيبة التي أحملها تزداد ثقلاً، وتعيدني إلى مخيمات النزوح، وحكايات الأولاد من هناك.

بقدمينٍ مثقلتين وحذاء مهترئٍ تماماً، بخطواتٍ متعثرة، ورأسٍ ممتلئٍ بالدمع من الداخل، أصل إليهم. المدينة يوماً بعد يوم تتحول إلى وحشٍ هائل، تبتلعني. لا تحاول، إنها بالفعل تبتلعني. أقول لهم: «حلمتُ أن في المدينة وحشاً ضخماً، وأنتي كنتُ خائفة، ولوهلة شعرتُ أنني سأبكي». يقولون لي: «هل هو الوحش الكبير كما في نص (قلبي) يشبه القمر؟ هل حاول أن يسحبك؟». أصمت. أفكر في إجابة فأراهم.. أعينٌ تلمع بشراسة، يمدون لي يداً تتشلتني من هذا التعب الذي أغرق فيه. أمد يدي وأمسك بهم، وأتشبث بالأمل الذي يمنحونني إياه. أمل مؤقت،

ماذا كتب الصغار قبل الحرب؟ وكيف يمكن للأولاد في عمر العشر سنوات أن يكتبوا عن تجاربهم أسفل الركاب، وأن يقرؤوا لي هذه التجارب بشفاه ترتجف، وأصابع متشابكة، وجسد يهتز كأنه لم ينجو بعد، كأن الجسد لا يزال هناك؟ كيف كان الجسد محتجزاً بين عمودين اسمنتين ثقيلين؟ كيف كانت الشقوق في الطوابق الأربعة المتهدمة فوق أجسادهم ترسل لبعضهم شعاعاً من نور الشمس؟ بماذا كانوا يفكرون هناك؟ وكيف كانوا يعرفون الوقت بينما هم أسفل كل شيء؟ وكيف يكتبون في نهاية قصصهم أنهم نجوا، وأنه لا يزال هنالك أمل؟ كيف تغذي الحرب لغة الكتاب الصغار؟ كيف تصبح اليد التي يطرقون بها جدران العالم؟ كيف تتحول الكلمات إلى فعل مقاومة ونجاة؟ كيف يبدوون نصوصهم بالقول: «لا أحد يهتم، ولكنني سأقول للمرة الألف أنني أريد أن أستمري في الكتابة لأنها صوتي ولأنها حكايتي؟».

ماذا غيرت حكاياتكم يا أولاد؟ ماذا سيقول العالم لسها ومنة وسلام ولارا وراما ونورهان؟ وهو يقرأ تلك النصوص بينما الحرب لا تزال مستمرة، وبينما هم عالقون في الخيمة؟

لا أملك إجابة واحدة عن تساؤلات كثيرة. كل ما أعرفه الآن، أن الحقيقة تزداد ثقلاً بمرور الوقت، وأن الحكايات، حكايات الأولاد، تتكدس داخلها، ويصبح فمي ممتلئاً بها، والطريق لا تزال طويلة ومضنية. وأني لن أحصل على إجابة مهما تساءلت عن كيف يكتب الصغار في زمن الحرب؟

إنهم يكتبون فقط.

أجلهم كتبت (رجال في الشمس)، ومن أجلهم نظرت كل أبواب العالم لتتوقف هذه الحرب المجنونة». إنهم يكتبون ويحاولون، يرسمون ويألفون الشعر، يرقصون الدبكة وتتمايل أجسادهم النحيلية على نغمات «يا ظريف الطول».

هل يعرفون أن تلك القصص التي يحكونها هي الوجه الحقيقي للحرب؟ لا أحد سيخبرك كيف يكتب الصغار في زمن الحرب، أو من أين تأتي الكلمات، من أي عتمة تطل، من أي وجع تخرج حادة ولها حواف تجرح من يقرأها. لا أحد سيخبرك كيف يتشكل نص أدبي في الخيمة، من حراراتها العالية، ومن قرصة الجوع فيها، من البرد الذي جاء سريعاً وعنيفاً هذا العام. ولا كيف تحصل فتاة في الرابعة عشرة على حكاية ترويها وهي تقف في طابور طويل ومرهق للحصول على وجبة غداء للعائلة. حينها تقول وهي تضحك: «وجدتها، وجدتها»، وهي تقفز فرحة، لأنها ستكتب عن طبق الفاصولياء العجيب. لا أحد سيضع أمامك سر هؤلاء الأولاد، ولا من أين يحصلون على الحبر والورق والروح لكتابة أنفسهم. كيف جاءت الحرب محملة بالخيبة لهذه الدرجة، للدرجة التي صارت تفوح من نصوص الصغار رائحة الشهداء، والجثث مجهولة الهوية، والجراح التي لا تزال تنزف؟ محملةً بوجوه الغائبين، والمفقودين الذين لم تعطنا الحياة فرصة لنقول لهم وداعاً أو نعانقهم للمرة الأخيرة، غير أبهين برعشة الألم التي تتاب جسدي وأنا أقرأ كلماتهم تلك.

أسألهم في حيرة من أمري: «ماذا كنتم تكتبون قبل الحرب؟». تلمع الأعين وتسهم في فراغ وصمت كئيبين، وتمتد هذه اللحظة كأنها تدوم إلى الأبد. لحظة تشعرني أن زمان ما قبل الحرب صار بعيداً، بعيداً للدرجة التي لا يمكن تذكره، أو تذكر أحداثه، أو استعادته ولو في الكتابة. كيف يمكن أن نكتب عن الربيع مجدداً في عشرة أسطر فقط مع مراعاة الخط الجميل، كما كانت تطلب منهم معلمة اللغة العربية؟ كيف نقول لهم أن يكتبوا عن رحلة إلى بحر غزة الآن، وهم بالكاد يرون زرقته حتى وهم يقفون أمامه لا يسمعون موجه؟ كيف تراجع الموج يا أولاد؟ من الذي أسكت هديره؟ وكيف ابتلعت الحرب البحر الشاسع والبديع؟ عن المطر ربما، عن العشب الأخضر في حقول البلاد، عن سنابل القمح التي تصبح ذهبية. ينظرون إليّ في ذهول تام: «كيف نكتب عن الربيع في الحرب؟ كيف نكتب عن حقول القمح في الحرب؟ ماذا نقول عن العشب الأخضر في الحرب؟».

أشعر بالحرب

فداء الحسنات



وسيلة تواصل متاحة لإبلاغنا بذلك. وفي الطوارئ، كان زميل لنا يدور بيننا بدراجته الهوائية كي يبلغنا بموعد الاجتماع. من حسن حظه أننا جميعنا محتجزون في نفس المدينة. من حسن حظه أن لديه دراجة!

لقد ذابت أحذيتنا من السير في شوارع المدينة التي أعادت تشكيل أرضها من جديد. فخطوات النازحين ثقيلة الحمل والهم، كل خطوة تصنع حفرة، وما بين حفرة وحفرة على الأسفلت صارت أقدامنا مُتعبة تخجل من إعلان وجعها. كنت أمشي وأمشي وأمشي غير مبالية بلون حذائي الأبيض الذي تغيّر تماماً. فمن حسن حظي أن لدي حذاء، هناك من هربوا من الموت دون أحذية.

السيارات المصفوفة على جانبي الطريق صارت وسيلة لتفريغ الغضب. كل نافذة مغبرة تحمل الكلمات الغاضبة بكل ثقة ووضوح، فلا يوجد من يتجسس على الرسائل المكتوبة على النوافذ. تخيل كم كانت حرة تلك الكلمات، وكم كانت ذات حق. لقد فقدت السيارات ذاكرتها في رصد الأمسيات والمشاورير الخفيفة والشوارع الطويلة، وصارت وسائل للتفريغ وأماكن للنوم بجانب الخيام. أما المواصلات، فخياراتك محدودة، أهونها أن تستقل عربة حمار أو حصان. هناك أيضاً شعرت بالحرب ورأيته في نظرات المارين بجانبني. ينظرون لما فعلته الحرب في الفتيات المدللات في حين كنا بمكالمة هاتفية واحدة يأتي سائق على باب البيت ليوصلنا حيث نريد. صارت ملابسنا التي لا بديل لها تتقطع من الجلوس على لوح خشبي يجره حيوان نرى دمه ينزف من شدة الضرب. نعترض على ذلك مرة ومرة أخرى نلتزم الصمت ونتجاهل المشهد، كما يتم تجاهل مشاهد ذبحنا وتجويعنا وتهجيرنا.

فأشعر بالحرب مرة أخرى وأشكر الكون أن هناك ما آكله وجبة واحدة في اليوم أساسية ندور حولها كأنها قبلتنا الوحيدة. وباقي الوقت نقوم بتصبير معدتنا بخبز وزعتر، هذا إن كان هناك شهية للأكل أصلاً. بل كانت جميعها محاولات عظيمة للبقاء على قيد الحياة قدر الإمكان، مراوغة شعور الاشتياق للذة الفم حين كنت أشتهي صنفاً ما فأذهب للمطعم وأكله. الآن كل ما لدينا هو المتاح في الأسواق الشحيحة وصناديق المساعدات «الكوبونات»، التي تحول بيننا وبين شعورنا بتقدير النفس والروح، بين كرامتنا كأفراد سعوا كثيراً كي يصنعوا فارقاً في الحياة، كي يصيروا نجوماً تلمع ترصدها الأقمار الصناعية من السماء. صارت ترصدنا كاميرات الصحفيين ليتحدثوا عن

لقد مرّ عام على فقداننا للكثير من امتيازات الحياة في القرن الحادي والعشرين. مرّ عام تغيّرت فيه ملامح روتيننا، هبطت فيه أسقف أحلامنا، وتنازلنا عن الكثير الكثير من ملامح إنسانيتنا مجبرين. لقد تغلّت الحرب في دواخلنا، فلم نفقد البيوت والأرواح فقط، إنما طالت يدها لتلمس صباحاتنا والأمسيات. لقد أصبحت الحرب والخوف منها فعلاً نتوارثه جيلاً بعد جيل. نشربه مع قهوتنا المحمصّة على الحطب المطحونة يدويّاً، ونأكله مع خبزنا المصنوع من أعلاف الحيوانات. نحمله ونحن نازحون للمرة العاشرة، ونتجرّع معه أحلامنا المتكورة كجمرة في أجوافنا.

أشعر بالحرب وأنا أقف رافعة يدي على أعلى منطقة على الشاطئ في الشتاء لالتقاط شبكة إنترنت كي أرى كيف تُكتب أخبارنا للعالم! وهل تشبه الحقيقة! أقرأ خبر تهجيرنا مكتوباً كنصّ عادي ينقله الإعلاميون على مجموعات الواتساب وتويتر، وأتذكر الإنترنت الذي كان متوفراً في كل مكان حتى يصل سريري. أتذكر متعة محادثة الواتساب تحت اللحاف في الشتاء. أنا الآن لا أشعر بيدي التي ترتجف في مواجهة البرد كي ألتقط شبكة إنترنت قام بتفعيلها ابن عمتي على شريحة إلكترونية كي تتصل بشبكات الإنترنت التي تصل إلينا من فضاء أراضينا المحتلة، كي أبحث بين أسماء الشهداء عن شهيد أعرفه. أذهب لمقر العمل فأتفاجأ بأن اليوم لا يوجد دوام، فلا

شعب يموت ويهجّر ويجوع إثر حرب استمرت لأكثر من عام. وأنت تقف على طابور المساعدات، لن تصنع لغتك المنمقة وأسلوبك الراقى فارقاً لدى مقدّم الإغاثة. وستجد نفسك تتسحب من لا وعيك لواقعك المرير، فتجد نفسك طرفاً في مشكلة لم تكن أنت من بدأتها. يُصرخ في وجهك رغم صوتك الهادئ، والخوف البادي في عينيك، رغم حلمك الكبير الظاهر فوق كتفك. ينظر لك العالم كمحتاج، كتائه، كمسجون يحتاج لمن يمدّ له طبق العدس والفاصولياء.

يوم جديد، لكن الأحداث ذاتها. لا قيمة للتواريخ طالما لا تُشطب من الأجندة المعلقة في البيوت. يخرج الطفل من بين الخيام يحمل فوق مقدرته من أواني لتعبئة الماء. يركض ليلحق بطابور الماء غير عابئاً بخفة الجرادل التي سيحمل مسؤولية العودة فيها ممثلةً وحده. في مرة حاولت مساعدة أحد الأطفال وحملت عنه جردل الماء. كان الطفل لا يكاد يصل طوله لنصفي، لكنّ جسدي مال من ثقل الجردل تلقائياً. يضحك الطفل فأبالغ في دهشتي من الوزن الثقيل ويزداد ضحكه. يضحك ويضحك على ضعفي ويفخر بقوة يديه فيقول: «بحمل بكل إيد جردل كل يوم، أنا قوي». وأنا أريد أن تكبر يدي لتحمل هذا الطفل وكل الأطفال بعيداً عن هذه الحرب.

يدهشك الأطفال في تعاملهم مع الواقع، فتظن أنهم لا يشعرون بالحرب حين تجدهم ينتظرون أمام فرن الطين متحمسين للريغيف الذي ينتفخ بداخله، غير عابئين بوجه أمهم المنتفخ حمرةً من النار والدخان، ولا لأصابع أبيهم التي امتلأت من شوك الحطب. تراهم مستلقين داخل الخيمة يشاهدون سقفاً منتظرين هبوط عصفور على سطحها فيصرخون دهشة وكأنهم يشاهدون عرضاً مسرحياً، غير عابئين بحبات العرق التي تتساقط من جباههم من جو الخيمة الخانق.

لكنهم يشعرون بالحرب أيضاً. فقد شعروا بها حين صاروا رجالاً فجأة، أو صاروا بصفات أمهات حين حملوا إخوتهم على ظهورهم. أما نحن الكبار، فتحمل هم كل هذا ونشعر به جداً.

كتب أطفال صدرت خلال الإبادة

أنا هنا

الناشر: كتب نون مؤسسة ناهد الشوا

نص: ناهد الشوا

رسوم: عبير حسن

نبذة: طفل يشرح مكانه في هذا العالم الواسع الشاسع ويؤكد أنه لا بد أننا كلنا في هذا الكون أصدقاء وأحباب



سنعود

الناشر: كتب نون مؤسسة ناهد الشوا

نص: ناهد الشوا

رسوم: براء العاوور

نبذة: قصة طفل فلسطيني يحب أرضه ويأسمينته وطائرته الورقية، يحدثنا كيف سرق المحتل أرضه ونكل به وسبب له ألماً وفقداً وخراباً، لكنه متمسك بالشمس مشرقاً في قلبه، يعطي للأرض وعداً: سنعود!



حياة

الناشر: كتب نون مؤسسة ناهد الشوا

نص: ريماء زهير الكردي

رسوم: هالة طارق

نبذة: تبدو الحياة في هذه القصة غير عادية، وهي كذلك، لأنها في غرة حيث الكل يحب الحياة.





عصافير بين الجدران

الناشر: كليلة ودمنة

نص: ياسمين عطية مور

رسوم: هيا حلا

نبذة: فرح طفلة خيالها واسع كبقية الأطفال تحب اللعب والمرح. فبالرغم من كل الظروف الصعبة في محيطها إلا أنها وجدت طرقاً لتصنع من تلك الظروف حياة سعيدة لها ولأختها. قصتنا هذه عن الأمل والعزيمة والحياة.

عودة الهدد

الناشر: الياسمين

نص: أليساندرا أمورييلو

رسوم: أماني يوسف



نبذة: يطرح هذا الكتاب قضية إنسانية مؤثرة ألا وهي احتلال الأرض وتهجير أهلها، ويجسد مقاومة الاحتلال والإصرار على البقاء بصورة رمزية اختُزلت في الهدد، الذي أصر على بقاء أشجار البرتقال حيّة، فصار يجمع بذورها وينثرها على الأرض. كما تلقي الضوء على شخصية «غسان كنفاني» الفدّة التي تركت أثراً كبيراً في تاريخ الأدب الفلسطيني.

قرب الخيمة تحت الغيمة

الناشر: مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي

نص: إسراء كلش

رسوم: براء العاوور



نبذة: قصة تتحدث عن أطفال غزة. من خيمهم البسيطة، يجولون بخيالاتهم في شتى المدن الفلسطينية هرباً من واقعه المريع. يروي كل منهم مغامرته في المدينة التي سرح إليها بخياله؛ فمنهم من يمسك التين ويرمي به فوق جنين، ومنهم من يصطاد السمك من بحيرة طبريا، ومنهم من يأكل الكنافة في يافا، ومنهم من خاض معركة مع تمساح «فضريه بوكس وطيّره فوق القدس»، ومنهم من يعلم بأن القمر غطاه بمعطف جلبيه من الخليل.

رحلة الصحراء

الناشر: مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي

نص: صفاء عمير

رسوم: عبد الله قواريق

نبذة: مغامرة تأخذ الأطفال في محاكاة لرواية الأديب الفلسطيني غسان كنفاني «رجال في الشمس»؛ تُشجعهم على التفكير والتساؤل والتأمل في مغزى الرحلة التي قطعها الرجال الثلاثة أبو قيس، ومروان، وأسعد في خزان أبو الخيزران.



رسائل الكتاب والكاتبات والفنانين/ ات لأطفال غزة

الناشر: مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي

نص ورسوم: مجموعة بزر بطيخ وهي كاتبات وكاتبات وفنانات/ين ومؤيدي/ات صوت من الوطن العربي

متوفرة على الإنترنت على شكل فيديوهات

نبذة: سلسلة رسائل من الفنانين/ات الفلسطينيون/ات والعرب إلى أطفال غزة. يحاول هذا العمل الفني التواصل مع الأطفال، حيث يشارك الفنانون/ات ذكرياتهم ولحظاتهم الحميمة، ويحدثون الأطفال عن أصدقائهم وأوطانهم، يحكون لهم الحكايات، ويبعثون لهم في رسائلهم عوالم خيالية يمكنهم أن يهربوا إليها بعيداً عن الحرب، فيرسمون سلماً يصعدون به إلى عالم الطيور فوق الغيوم، أو ينسجون معاً بساطاً سحرياً يطيرون عليه، أو يرسمون خارطة لمسار الدراجات ليسافروا معاً من خلالها في وطنهم.



لبن يتعلم التركيز على التنفس

الناشر: مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي

نص: سارة طاهر

رسوم: فانيسا مورينو

نبذة: قصة يتعلم خلالها القط لبن التغلب على مخاوفه في بيته الجديد. يغمض عينيه ويأخذ نفساً عميقاً ليكتشف أن مخاوفه ما هي إلا أوهام تتلاشى حالماً يتنفس بعمق. فيكتشف أن التين العملاق ما هو إلا فراشة، وأن النينجا المتوحش ليس إلا نبتة صبار، وأن الشبح المرعب الذي يلاحقه هو ظله.



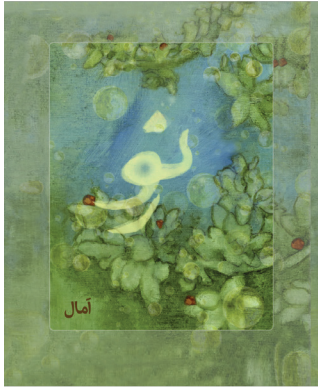


أصيل والأطفال الخمسة

الناشر: مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي

نص: أصيل سلامة

نبذة: في هذه اليوميات ترصد أصيل حياة الناس تحت القصف والنزوح وهي التي تعيش في مدينة رفح وقد حرمتها الحرب إلى وقت غير معلوم من الحياة الجامعية. من بيت العائلة في رفح الذي صار ملجأً لعدد غير قليل من النازحين، تكتب أصيل يومياتها بعاطفة صادقة، دون مبالغات، وبرغبة جارفة بانتهاء الحرب.



نور

الناشر: مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي

إعداد الفنانة: آمال

نبذة: تتساءل قطة وحيدة وسط الفوضى عن الجمال المفقود، لكن الأمل يتحول إلى ريشة، إلى طائر الفينيق، الذي يعيد للأرض رونقها.



غرزة... غرزة... غرزة... ثروى الحكاية

الناشر: كلمات

نص: لينا أبو سمحة

رسوم: عمر لافي

ملخص: تحومُ أجنحةُ الظلام فوق قرية المجدل الفلسطينية الهادئة، حين يظهر طائرٌ أسودٌ مشؤومٌ، يُلقي بتعوذاته الشريرة على السُكّان، فيسرقُ البهجة ويتركهم في حالة من الخوف والرعب، وتفقدُ بسببه سعادة خيطة البلدة ذاكرتها، وتتمحى النُقوش الجميلة والتوليفات التي تناقلتها منذ القدم. تطلبُ نساءُ القرية من سعادة خيطة الزينة على أثوابهنّ، فتتطلقُ سعادة في رحلة عبر بلدات ومدن فلسطين لجمع رسوم المطرّزات الجميلة واستعادة ذاكرتها، فما هي المدن التي ستزورها يا تُرى؟ ومن ستلتقي في طريقها؟ وهل ستستطيعُ هذه القرية الوقوف ضدّ الظلام؟

بربر بربر تم تم تم

الناشر: دار نهضة مصر

نص: محمد الحموي

رسوم: هيام صفوت

نبذة: كتاب يعالج موضوع الحرب واللغة والانتماء عبر قصة صداقة بين طفلين لا يتحدثان نفس اللغة.



حين تنتهي الحرب

الناشر: دار الساقى

نص: فاطمة شرف الدين

رسوم: لينا نداد

نبذة: سَأَسْمِي الزُّهُورَ الْبَيْضَاءَ عَلَى شُرْفَتِي بِاسْمِكَ يَا هَادِي، وَالزُّهُورَ الْبَيْضَاءَ بِاسْمِكَ يَا مَيْسُونَ، وَالزُّهُورَ الْحَمْرَاءَ بِاسْمِكَ يَا سَامِرٍ. قِصَّةٌ عَنِ الْأَمَلِ وَإِرَادَةِ الْعَيْشِ رَغْمَ الْخُسَارَةِ وَالْفَقْدَانِ.



مياو مياو

الناشر: مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي

نص: أحلام بشارات

رسوم: هيا حلاو

نبذة: قصة مهداة إلى كل أطفال غزة الذين هربوا مع حيواناتهم الأليفة، تلتقط القصة اللحظات العاجلة التي تسبق هروب عائلة من منزلها بعد أن حاصرهم الاحتلال. يُطلب من كل فرد في العائلة أن يحمل شيئاً واحداً فقط، شيئاً يحبه، وخفيفاً، وضرورياً.



الرحلة من الجنوب إلى

الناشر: مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي

نص: أحلام بشارات

رسوم: هيا حلاو



نبذة: قصة تفاعلية تسلط الضوء على حرب الإبادة على غزة. يروي الكتاب رحلة نزوح الأطفال نور وبيسان برفقة العصفور نقطة، والقطة سردين، والحمار جميز نحو الجنوب إلى منزل جدتهما. تبدأ الرحلة بفقدان نور وبيسان لوالديهما، وإصابة نور في عينه، بينما تفقد قطة سردين ذيلها بعد أن انتشلا من تحت الركاب. يواجهون في طريقهم الظلام، والقصف، والخوف، والجوع، وأصوات الانفجارات بمفردهم. ورغم الفوضى والألم، يحاولون مقاومة الخوف والتغلب عليه باسترجاع الذكريات السعيدة، يعدونها على أصابعهم، ويرقصون ويغنون، في محاولة لاستعادة الدفء وسط العتمة.

الحمارة التي حملت الحرب على ظهرها

الناشر: مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي

نص: هدى الشوا

رسوم: سيني سيبتيلا



نبذة: تدور هذه القصة حول «زهرة»، وهي حمارة شجاعة تعيش مع صاحبها سامي في غزة، فلسطين. يتجولان معاً في شوارع غزة، وترافقه زهرة في أعماله اليومية، حاملة الفواكه والخضروات والزهور والأثاث والطناجر والمقالي في عربتها. لكن في أحد الأيام، تندلع الحرب فتغير حياتهما اليومية وتغيرت غزة التي كانا يعرفانها. ومع هذا التغيير، يتغير أيضاً الحمل الذي تحمله زهرة. تصبح عربتها وسيلة لنقل المؤن؛ فتحمل أكياس الطحين وعبوات المياه، وتتحول عربتها إلى إسعاف ينقل الجرحى والمصابين إلى المستشفيات وملاجئ الإيواء.

البيت شجرتنا

الناشر: مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي

نص: بيسان نتيل

رسوم: مجدل نتيل

نبذة: يأخذنا الكتاب في رحلة يخوضها المنزل الذي يحتضن فصول السنة الأربع بكل تفاصيلها. يبدأ بزهر الرمان الذي يبشر بالربيع، ثم شمس الصيف الساطعة، ليتبعه الشتاء مع الطيور التي تتخذ من البيت ملاذاً آمناً، ثم الخريف الذي يُقلم أوراق الشجر في المنزل. ويصمد المنزل أمام الآلة العسكرية التي تحاول طمس معالمه، لكن الذاكرة تنتصر في النهاية على هذا الصراع البصري، وتقاوم آلة الاستعمار التي تنهش بكل ما هو على الأرض.

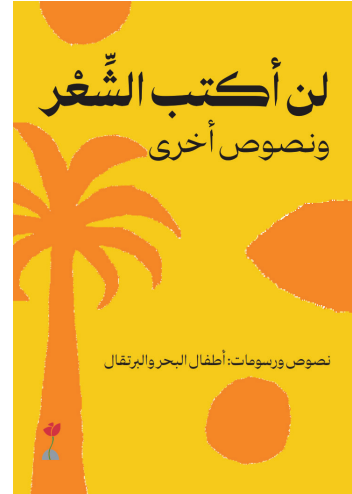


لن أكتب الشعر ونصوص أخرى

الناشر: مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي

نصوص ورسومات: أطفال البحر والبرتقال

نبذة: يقدم هذا الكتاب مجموعة من النصوص والرسومات التي أبدعها أطفال فلسطين. هذه الأعمال هي ثمرة ورشات عمل نفذها الكاتب هاني السالمي والفنانة هناء أحمد مع الأطفال في غزة، منحهم فيها مساحة للتعبير عن مشاعرهم المكبوتة من خلال الكتابة الإبداعية. ثم تم إرسال هذه النصوص إلى أطفال في الخليل والقدس الذين أضافوا إليها رسوماتهم وتفاسيرهم البصرية، ما نتج عنه تداخل أدبي وفني مشترك. هذا السرد التشاركي يوحد الأطفال عبر فلسطين ويعبر عن تجاربهم خلال الحرب الإبادية.



مناداة

الناشر: مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي

نصوص ورسومات: أطفال فلسطين

نبذة: كتاب يجمع بين يدي القراء النصوص واللوحات التي شارك أطفال فلسطين في كتابتها ورسمها. وهي نتاج المسارات الفنية التعبيرية التي نظمتها مؤسسة تامر مع الأطفال لتقديم الدعم النفسي لهم. قدم الأطفال من خلال لوحاتهم ونصوصهم مشاعرهم وما يعيشونه في ظل الإبادية الجماعية.





من تحت بندقية الصيد

الناشر: مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي

نص: أحلام بشارات

تصميم: نظيمة أسمر

نبذة: نتج هذا الكتاب عن سلسلة لقاءات ضمن مشروع «أين ذهب البيت؟» والذي نفذته مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي مع مجموعة أطفال ويافعين من مدينة القدس، تعرضوا لظروف الاعتقال المنزلي.

